كلمة تصدير

بين الحربين العالميتين شاعت الدعوة العنصرية فبلغت أقصى مداها ، وعملت فيها السياسة غاية عملها ، وأقحمها الدعاة من مباحث العلم والتاريخ في غير موضعها .

وقد كانت للإسلام كلمة في إنصاف العناصر والأجناس سابقة لكلمة الحضارة العصرية والعلم الحديث ، وكان في صحابة النبي ﷺ رجل أسود هو بلال بن رباح مؤذنه الأول . فكان أثيراً عنده وعند الخلفاء وجلة الصحابة والتابعين .

فالكتابة عن بلال رضي الله عنه في هذا العصر تقع من سلسلة العبقريات والسير الإسلامية في موقعها وتصادف موعدها من الزمن في أعقاب الحرب العالمية القائمة

ولهذا كتبت هذه الصحائف في سيرة داعي السماء

عباس محمود العقاد

سنة ١٩٤٥

WWW.AL-MOSTAFA.COM

مسألة العنصر

مسألة العنصر — أو الجنس — مسألة اجتماعية كثيرة الورود على ألسنة المعاصرين وأقلامهم . ولكنها على هذا من أقدم مسائل الاجتماع التي وجدت مع وجود القبائل الأولى .

وأكثر الباحثين في المسائل العنصرية من المختصين بها بين الغربيين يردون كلمة العنصر أو الجنس Race في لغتهم إلى أصل سامي يرجحون أنه هو اللغة العربية . ويعتقدون أنها مأخوذة من كلمة الرأس التي كانت تميز بين رءوس السلالات الآدمية وغير الآدمية .

ولم يكن اختلاف القبائل وتفاخرها شراً كله في بداية أمره ، ولا كان مدعاة للنزاع دون غيره . فمن علماء الاجتماع من يرجع بالوشائج الاجتماعية كلها والآداب الإنسانية برمتها إلى الواشجة الأولى التي تنشأت في مبدأ الأمر مع نشوء القبيلة المصحية ، ثم كانت سبباً إلى التجاذب والتعارف بينها وبين القبائل الأخرى . ومصداق ذلك في القرآن الكريم حيث جاء في سورة الحجرات : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . . . » (آية ١٣)

فكانت الواجبات التي تفرضها القبيلة على أبنائها أساساً لجميع الواجبات التي تعلّمها الإنسان بعد ذلك ، سواء فرضتها عليه القبيلة أو الأمة أو الجامعة العنصرية أو الإنسانية بأسرها .

وقد طبع الناس على التفاخر بما يخصهم ولا يعم غيرهم كائناً ما كان معدنه ومدار الفخر فيه فشاعت بينهم المفاخرة بالأنساب والأصول كما شاعت بينهم المفاخرة بمعالم الأرض التي يسكنونها وصنوف المطاعم التي يأكلونها ، وتفاضلوا بالحقائق كما تفاضلوا بالأساطير والأوهام

في قديم الزمن يفخر كل عنصر بعراقته وامتيازه على غيره . ويريده

إمعاناً في عادة التفاخر والمباهاة أن تتاح له فرصة الغلبة والاستعلاء فرصة من الرس فإن كانت الغلبة قائمة حاضرة فهي آية الفخر وحجة المباهاة . وإن كانت عابرة دائرة فهي عنده علامة على عراقة أصله وحداثة غيره . وأنه أحق من ذلك الغير بالفخر والمباهاة وإن خذلته الخطوط والمصادفات في حاضر أمره .

فلم تعرف أمة قديمة قط خلت من مفاخرة بعنصرها واعتداد بنشأتها وبيئتها وبلادها . والذي قال :

بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنوا عليّ كرام

قد جمع هذه الحقيقة من جميع وجوهها وهو يدري أولا يدري فليس من اللازم أن تكون البلاد أطيب البلاد ولا أن يكون الآل أكرم الناس ليفخر بهم الرجل الذي ينتمي إليهم وتحسب سمعتهم عليه وسمعته عليهم . فإنه ليعظمهم ويجلهم فراراً من المهانة التي تصيبه إذا تصاغروا عن شأو العناصر الأخرى في التعظيم والتبجيل . فهو فاخر بهم إن عظموا مساهمة منه في فخارهم . وفاخر بهم إن هانوا دفعاً للهوان عنه إذا اعترف بهوانهم . ولا حساب للبحث أو للرأي في الحالتين إلا بعد حساب العاطفة والشعور .

كان المصري القديم يؤمن بأنه هو الإنسان الكامل ثم تتلاحق الشعوب بعده إلى أن يأتي أبناء اليونان في المرتبة السادسة

وكان اليوناني القديم يؤمن بأنه هو الإنسان المهذب ومن عداه برابرة لايدركون مكانته من الفهم والحضارة

وكان العربي القديم يؤمن بأنه هو الإنسان المبين الكريم ومن عداه أعاجم ، لايفقهون مايقال ولا يدينون بدين المروءة والاحساب

وكذلك كان أبناء فارس والهند والصين . بل كذلك كانت كل قبيلة من تلك القبائل حين ينظر إلى نظائرها وإن تلاقت جميعا فى أصل قريب من الأحساب والأنساب .

وبقيت هذه الشنشنة بين أمم الحضارة فى العصر الحديث فاعتز بها الأوربيون على أبناء القارات الأخرى ، ولكنهم لبثوا فيما بينهم يفاخر كل شعب منهم جاره بالعادات والأخلاق والمآثر وإن تقاربوا فى السلالة واللغة والعقيدة فليس أشد تفاخراً بين الأوربيين من الطليان والإسبان والفرنسيين وهم يرجعون بلغتهم إلى اللاتينية وبعقيدتهم إلى المسيحية الرومانية ومعاصرهم الى مزيج متقارب من السلالات ، ولكنهم تعلموا — بوحى المصلحة المتفقة — أن يجمعوا تفاخرهم كله إلى فخر واحد يتقارب فيه الأوربيون كافة ، وهو « اللون الأبيض » أو الانتماء إلى القارة المختارة بين القارات . وجعلوا هذا اللون الأبيض رسالة يبشر بها الأوربيون من عداهم من الشعوب الإنسانية ، وسموا تلك الرسالة « عبء الرجل الأبيض » أو أمانة الرجل الأبيض » أو تبعته أمام الله لهداية خلقه الذين لم يبلغوا مبلغهم من العلم والارتقا .

وصدق العالم الإنجليزى جوليان هكسلى حين قال إن هؤلاء الدعاة مسبوقون إلى دعواهم قبل ميلاد السيد المسيح . فقد سبقهم « أشعياء » من أنبياء إسرائيل فقال فى إصحاحه التاسع والأربعين : « اسمعى لى أيتها الجزائر واصغوا أيها الأمم من بعيد . الرب من البطن دعانى ، من أحشاء أمى ذكر اسمى . وجعل فمى كسيف حاد . فى ظل يده خبأنى وجعلنى سهما مبريا . فى كنانته أخفانى . وقال لى انت عبدى إسرائيل الذى به

أتمجد . أما أنا فقلت عبثاً تعبت ، باطلا وفارغا أفنيت قدرتى لكن حقى عند الرب وعملى عند إلهى .

« والآن قال الرب جابلى من البطن عبداً له لإرجاع يعقوب إليه فينضم إليه إسرائيل فأتمجد فى عينى الرب وإلهى يصير قوتى . فقال : قليلٌ أن تكون لى عبداً لإقامة أسباط يعقوب ورد محفوظى إسرائيل ، فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصى إلى أقصى الأرض هكذا قال الرب فادى إسرائيل . . . »

فرسالة الرجل الأبيض التى تحمس لها القرن التاسع عشر كله لم تذهب بأصحابها إلى أبعد من هذا المدى الذى سبقهم إليه بنو إسرائيل قبل ميلاد السيد المسيح بتسعة قرون .

* * *

وظلت المفاخر العصرية كلها من قبيل هذه العادات الاجتماعية التى لا يرجع فيها إلى قياس منطقى ولا موازنة علمية . فكانت أشبه شىء بمفاخرات الصبيان بعضهم لبعض بآبائهم وأمهاتهم وأخواتهم وجيرانهم وبيوتهم التى يسكنونها ومدنهم التى ينشأون فيها وكل شىء يحصل بهم وتنعقد فيه المقابلة بينهم وبين غيرهم . وفحوى مفاخر الأجناس من هذا القبيل أن كل جنس هو أفضل الأجناس لغير سبب . وليس هذا من القياس المنطقى ولا الموازنة العلمية فى شىء .

ثم اتسع نطاق البحث العلمى فى القرن التاسع عشر فأدخل الفوارق بين الشعوب فى موضوعاته الكثيرة وجعل لها علماً خاصاً أو باباً خاصاً من أبواب المعرفة يسمى معرفة الأجناس البشرية .

وانتهى به البحث إلى وجود الفوارق الصحيحة بين خمسة من

الأجناس التي ينتمي إليها شعوب الشركاسة . وهي الجنس القفقاسي أو الأبيض . والجنس الزنجي أو الأسود . والجنس المغولي أو الأصفر . والجنس الأسمر أو أهل الملايا . والجنس الأحمر أو سكان القارة الأمريكية الأصلاء .

واختصر بعضهم هذا التقسيم إلى ثلاثة أقسام فيجعل الأجناس الصفراء والسمراء والحمراء فروعا من أصل واحد . وهو اختصار له سند معقول .

وقد عني أصحاب هذه التقاسيم بالعروق التي تورث وتنتقل مع الأجيال . أي بالعروق التي يسمونها عروقاً بيولوجية دون غيرها من العروق الاجتماعية التي تكتسب بالقدوة والمحاكاة .

وتناول العالم اللغوي الألماني ماكس موللر دراسة الأجناس من الناحية التي تعنيه وهي ناحية المقابلة بين اللغات . فاستخدم كلمة اللغات الآرية وأحياها من جديد بعد أن سبقه إلى استخدامها السير وليام جونس في أواخر القرن الثامن عشر ، وقرر أن أصحاب اللغة الهندية الفارسية نشأت من مهد واحد في أواسط آسيا التي كان الأقدمون يعرفونها باسم « أريانا » وأنها كانت في نشأتها الأولى لغة قبيل واحد من الأجناس البشرية . وكلا القولين اليوم حظاً عند علماء هذه المباحث فيما أثبته حولياته هكسلي من كلامه عن الجنس في القارة الأوربية .

وأحس العالم الألماني الكبير أن دعوة الجنس الآري ستخرج من حيز التفكير العلمي إلى ميدان الصراع على الشهوات السياسية فحذر قراءه من الخطأ في تفسير كلامه وعاد إلى التحذير من ذلك في شيخوخته حيث قال : « لقد ناديت مرة بعد مرة أنني إذا ذكرت الآرية فلست أعني

الدم ولا العظم ولا الشعر ولا الجمجمة . وإنما أرمي إلى قصد واحد وهو أولئك الذين يتكلمون باللغة الآرية . . ومتى تكلمت عنهم فلست أتبع في ذلك الخصائص التشريحية ، ولا أعني أن أبناء السكنديناف ذوي العيون الزرق والشعر الأصفر قد كانوا قاهرين أو كانوا مقهورين ، ولا أنهم قد اتخذوا لغة السادة السمر الذين تغلبوا عليهم أو كان الأمر على نقيض ذلك . وعندي أن عالم الأجناس الذي يتكلم عن العنصر الآري والدم الآري والعيون الآرية والشعر الآري إنما هو في حطته العلمية كاللغوي الذي يتكلم عن معجم مستطيل الرأس أو أجرومية مستديرته على حد سواء » .

وكان القرن التاسع عشر قرن « مذهب النشوء » كما كان قرن المذاهب العلمية والفلسفية من شتى نواحيها ، فما زالت الأقوال في مذهب النشوء تتسع وتتشعب حتى عرض لبعض الباحثين فيه أن الأجناس البشرية تنتمي إلى أصول متفرقة لا إلى أصل واحد أو شجرة واحدة ، وأن القردة العليا هي أجناس بشرية بمعزل . وأن المغولي والقرد المعروف بالأورانج نبتا من أصل واحد ، وأن الزنجي والغوريلا والشمبانزي تنتمي إلى أصل آخر ، وكان رأس القائلين بهذا الرأي عالماً ألمانياً من علماء الأجناس هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch أستاذ هذا العلم بجامعة برسلاو الألمانية . فأعلن في أوائل القرن العشرين رأيه هذا وأيده بما بدا له من الشواهد والملاحظات التي كشفت عنها مقابلاته بين أنواع القردة وأنواع الإنسان

لكن القرن التاسع عشر لم يكن قرن المباحث العلمية ولا قرن النشوء والتطور دون غيرها . بل كان كذلك قرن التوسع في الاستعمار وتسخير

العلم لخدمة المطامع الاستعمارية والمنازعات السياسية . . . فظهر من الكتاب من يبشر بالجامعة اللونية أو العصبية الجنسية على أساس الأرض والعنصر . وقام فى أوربا من يبشر بامتياز أجناس الشمال على سائر الأجناس البشرية ومن يرد الفضل فى كل فتح من فتوح العلم والثقافة والحضارة إلى أصل الجنس الآرى المزعوم فى الشمال ، وأشهر من اشتهر بهذه الدعوة « أرثر دى جوبينو » فى فرنسا وهوستون شمبرلين الإنجليزى المتجرمن فى ألمانيا . ولم تغفل أمريكا من نصيبها من هؤلاء الدعاة وهى ميدان نزاع بين الأجناس البيضاء والحمراء والسوداء وميدان مهاجرة بين المهاجرين الأوربيين الذين يمتون بالنسب إلى أصول مختلفة . كالسكسون واللاتين وأمم الشمال والجنوب فكان لوثروب ستودارد Lathrop Stoddard وماديسون جرانت Madison Grant على رأس المبشرين بهذه العقيدة فى الولايات المتحدة . ولم تكن كراهة الأجناس الملونة هى الباعث الوحيد فى نفوس هؤلاء إلى التبشير بمزايا الرجل الأبيض أو مزايا الجنس الآرى خاصة من بين الشعوب البيضاء وإنما كانت كراهتهم للحكومة الحرة — أو حكومة المساواة بين الطبقات — باعثاً آخر إلى إنكار صفات الشعوب التى سمحت بهذه الحكومة الحرة واتهامها بالنكسة والفساد من جراء امتزاجها بأجناس غير الجنس الآرى أو الجنس الشمالى الجيد . فكانت هذه النكسة مدرجة لها إلى النزول عن أوج السيادة والإذعان لشريعة المساواة .

ولاشك أن حروب نابليون بونابرت كانت لها يد قوية فى تمكين هذه النزعة بين الأمم الجرمانية خاصة ، لأنها كانت سلاحها الذى تدرأ العار به عن فخارها القومى فى مجال الصراع بينها وبين اللاتين أو بين أمم الشمال

وأمم الجنوب . وقد كان نابليون قائد فرنسا اللاتينية فى صراعها مع الجرمان مستمداً من حروب الجنوب بالقياس إلى القارة الأوربية فكانت صيحة الفخار القومى التى تستثار بها الأمم الجرمانية إلى الوحدة هى تعظيم مزايا الجنس الشمالى الذى ينتمون إليه ، واتفق ذلك فى عصر البحث عن الأجناس وعصر النشوء والتطور وعصر السباق إلى الاستعمار وعصر الديمقراطية التى تخلف فيها الجرمان عن جيرانهم . فكانت صيحة التفوق العنصرى على أشدها بين الألمان ، وكادت عقيدة الجنس الآرى أن تنحصر فيهم بعد مولدها فى بلاد الإنجليز على لسان واحد منهم وهو العلامة ماكس موللر الذى سبقت الإشارة إليه ، ومن ثم تدرت دعوة إلى التفوق العنصرى لم تكن لها صلة بالثقافة الألمانية الحديثة من قريب أو بعيد .

* * *

وقد تعددت الأسباب التى ألهجت ساسة الألمان بعد الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ — ١٩١٨) بمسألة العنصر ودعوى الآرية أو الأقوام الشمالية وما لها من الرجحان على خلائق الله كافة من أوربيين وغير أوربيين ، سواء فى الزمن القديم أو فى الزمن الحديث .

فقد احتاج الساسة الألمان إلى محاربة المذهب الشيوعى فوضعوا بإزائه مذهب الاشتراكية « الوطنية » وهى تختص بالخصائص القومية فى وجه الدعوة الدولية التى يبثها الشيوعيون ، وفاقا لعقيدتهم المعروفة ، وهى عقيدة الثورة على الأوطان والأديان

ووافقتهم الخصائص القومية فى حربهم للشيوعيين من وجه آخر غير المقابلة بين المذهبين ، وذلك هو المقابلة بين عنصر السلافيين وعنصر

التيوتون الذى ينتمى إليه الألمان . فكانوا يقولون إنهم هم حماة الحضارة الأوروبية من زحوف البرابرة التى تهددها من قبل آسيا فى الزمن الحديث .

واستغلوا دعوة العنصر الآرى استغلالاً غير هذا وذلك فى محاربة اليهود باسم الساميين .

واستغلوها مع هذا وذاك لاستنهاض نخوة الأمم الجرمانية بعد هزيمتها المنكرة فى ميادين القتال ، فنصحوا فى أوداجها أنها أهل للظفر – وليست بأهل للهزيمة – لأنها خلقت للسيادة وترشحت فى سلالتها الآرية من شوائب الأخلاط ، وأدخلوا فى روعها أنها كانت وشيكة أن تظفر بأعدائها لولا خيانة العمال من قبل الشيوعية ، وخيانة اليهود من قبل الشيوعية تارة ومن قبل أصحاب الأموال تارة أخرى

فأصبحت دعوة العنصر هوساً جامحاً كهوس التعصب فى كل عقيدة من العقائد الشعورية . وبلغ من التهوس بالدم الآرى المزعوم أنهم جعلوه فلسفة فى الحكم وفلسفة فى الأخلاق والفنون والآداب ، فكانوا يقولون إن الحكومة بنية حية تنبت من الدم القومى كما تنبت الجوارح فى الأجسام ، وأن الزعيم تركيب داخل فى تلك البنية بتقدير من طبيعة الكون أو طبيعة الخلاق العظيم ، وكان هتلر ينادى فى كتابه « إننا معشر الآريين لانعرف الحكومة إلا كبنية ذات حياة يتلبس بها الشعب من الشعوب ، . . . فهى شىء لايدخل فى الإرادة ولا فى التربية السياسية ولا فى نظم التشريع والانتخاب .

وتطوح الغلو بدعاة هذه العنصرية حتى بلغوا بها – مع تلك البواعث النفسية والسياسية – مبلغاً لم يسبقهم إليه سابق فى عالم البحث ولا فى عالم الخيال . فجعلوا أجناس البشر فصائل تتعاقب طبقة تحت طبقة حتى

تلتقى بالقردة ولا يبعد أن تناسلها ، وجعلوا أنفسهم نخبة مختارة بين فصائل الآرية جمعاء ترتقى إلى الذروة العليا فى ذلك الترتيب ، وعادوا إلى كل رجل من أصحاب الفاتحين الخلاقة بين عظماء الأمم فألحقوه بالآريين على وجه من الوجوه ، وعادوا إلى كل اختراع من مبتكرات الصناعة وأدوات الحضارة فنسبوه إلى شعبة آرية مقيمة فى موطنها أو مهاجرة إلى وطن من الأوطان ، فحصروا الخلق والسيادة فى الآرية المزعومة دون غيرها وجعلوا العناصر الأخرى جميعاً عالة على الآريين يتنعمون بما يخلقون ويدينون لسيادتهم طائعين أو كارهين .

ولعل هذا الغلو من جانب دعاة العنصرية قد جنح بنقاد هذا المذهب إلى الغلو فى إنكار خصائص الأقوام والأجناس ، وهم إذا غلوا فى هذا الطرف كان لهم شفيع من الحجج والشكوك أدنى إلى الإقناع من شفيع العنصريين .

وإنما نعرض للبواعث السياسية التى امتزجت بالحقائق العلمية فى مسألة الجنس والعنصر لأن الإلمام بهذه البواعث يعين على تجريد الحقائق العلمية من أخلاطها الغريبة ويرجع بها كرة أخرى إلى حيز الدراسة الفكرية والبحث المعقول .

ومن الواجب أن نصغى أولا إلى دواعى التشكيك فى تلك الدعوة الجامحة وهى كثيرة ، فإنها على التحقيق تدعو الى الشك فى دعوة العنصريين وتبطل اليقين بكل عقيدة من تلك العقائد التى يخيل إليهم أنهم يؤمنون بها ، لأنهم يشعرون بالحاجة إلى ذلك الإيمان .

فمن دواعى الشك فى العنصرية الآرية أن العنصر الآرى المزعوم لم يكن له وجود قط كأنه سلالة من السلالات الوراثية على النحو الذى

عبادة ، وإنما كان جامعة لغوية يشترك فيها أقوام مختلفون لا يتأتى ردهم اليوم إلى سنخ واحد ، ولا يتشابهون فى الخصائص العنصرية إلا كما يتشابه الأقوام الذين يتكلمون اليوم بلغة واحدة على تباين المواطن والألوان .

قال العالم الإنجليزى جوليان هكسلى فى كلامه عن العنصر أو الجنس بالقارة الأوروبية : إنّ دعاة العنصرية تكلموا عن الجرمان والآريين وأقوام الشمال » أو النورديين » كأنهم سلالة واحدة ، وهذا خلط لا مسوغ له من الحقائق . وإنما المقطوع به أن هناك نموذجا بشريا يعرف بالنموذج الشمالى موزعاً بين الأقطار الشمالية فى أوربا من الجزر البريطانية إلى التخوم الروسية ، وإن هذا النموذج وهو على أقرب مايكون إلى النقاوة والصفاء فى بعض الأقاليم السكندنافية لم ينسب إليه قط فتح من فتوح الحضارة أو كشف من كشوف العلم أو أداة من أدوات الاختراع التى اشتهرت فى التاريخ . وقد روجعت مخلفات العصر الحجرى التى ترد الى ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة فى بريطانيا العظمى فإذا هى تمثل ثقافة من ثقافات البحر الأبيض المتوسط حملها ذووها إلى شبه الجزيرة الايبيرية – التى نعرفها باسم الأندلس – ثم إلى فرنسا فالجزر البريطانية . ومن المحقق أن الخطوات الأولى التى خطاها الإنسان إلى الحضارة حين تعلم الحرث والكتابة وبناء المنازل ونقل الأحمال على الدواب قد تقدم بها فى جوار البحر الأبيض حيث تقيم الأمم السمراء التى لم تنتسب إلى السلالة النوردية ، ومن المحقق كذلك أن مشاهير الجرمان أمثال جيتى وبتهوفن وكانت كانوا مستديرى الرءوس ربعة فى القوام ، وليس نابليون ولا شكسبير ولا أنيشتين ولا غاليليو وعشرات من أمثالهم على الصفة التى يزعمونها للنورديين ، ومن طرائف المصادفات أن اللون الأشقر والقوام

الطويل الرشيق لا يعرفان لزعيم من زعماء الدعوة النوردية أو الآرية المزعومة . فهتلر أسمر وستورتيج [illegible] ودعاة « الحكم » من سكان ألمانيا الشرقية تختلط فيهم ملامح السلافيين والتيوتون ، وهم أكبر الدعاة إلى السيادة الجرمانية على الأمم قاطبة

ويتفق علماء الأجناس ووصف الإنسان على توزيع السلالات فى العنصر الواحد كما يتفقون على ندرة النقاوة المحض فى عنصر أو سلالة فالجنس الأبيض فى القارة الأوروبية وما جاورها ينضوى إلى عنوان واحد ولكنه ينقسم إلى السلالات النوردية والألبية وسلالة البحر الأبيض المتوسط ، وهذه السلالة الأخيرة تنضوى إلى عنوان واحد ولكنها تنقسم إلى ليبيين وإيبيريين وليجوريين نسبة الى اسم جبال الألب ما بين البحر وسافونا السفلى ، وقد يضاف إليهم البيلاسجيون Belasgans الذين يعرفون وحدهم فى بحر « إيجه » على مقربة من اليونان .

والجنس الأسود ، على كونه من العناصر المتميزة بين أجناس البشر ، يشتمل فى بعض الأحيان على ما يماثله أو يقاربه . فقد عرفت القبائل السوداء فى أستراليا ولكنها تخالف القبائل الأفريقية فى الخصائص الوراثية ، بل يقع الخلاف فى بعض الملامح والأخلاق بين السود المتجاورين من أبناء القارة الأفريقية أو أبناء الإقليم الواحد منها فالبوشمان والهوتنتوت كلاهما من سود أفريقية ولكن الأولين قصار وتابون مولعون بالصيد والقتال والآخرين طوال يرعون الماشية ويميلون إلى الاستقرار . ويجاورهم السود من أبناء قبائل البانتو الذين يعمرون السودان الجنوبى وبعض أقاليم الصحراء إلى الشواطئ العربية ، وهم جماعات

شتى بين رعاة رحل مقاتلين وزراع مقيمين موادعين . وليست فوارقهم في اللغات أقل من فوارقهم الكثيرة في الملامح والسمات والعادات .

* * *

ونعني هذه الشواهد المتواترة بقرر لنا أن السلالات البشرية لا تبقى على وحدتها وانفرادها مع تعاقب الأجيال واختلاف مطارح الهجرة والانتقال . ولكنها تتوزع وتتفرع وينتشر التوزيع والتفريع في خصائصها ومزاياها . وليس أدعى من ذلك إلى التشكيك في مزاعم العنصريين الذين يحصرون مزايا البشر العليا جميعاً في سلالة واحدة تنفرد بها وحدها بين سائر السلالات .

ومن دواعي الشك القوية في مزاعم العنصريين أن كثيراً من المزايا التي يصفون بها سلالة من السلالات يسهل الرجوع بها إلى عواملها المحلية أو الاجتماعية التي لا تحسب من العوامل الوراثية الحيوية . ونعني بها ما يعرف بالعوامل البيولوجية .

فقد زعموا — مثلا — للسلالات الأوربية أنها انفردت بحب المعرفة النظرية وملكة البحث عن حقائق الأشياء و « التفلسف » المجرد الذي لا يرمي إلى المنفعة القريبة سواء منها ما ينتفع به الأفراد أو ما تنتفع به الجماعات . وقالوا أن الشعوب الشرقية لا تحب المعرفة هذا الحب ولا تتجرد للمباحث الفلسفية هذا التجرد . ولكنها تعنى بالعلم لتطبيقه في الصناعات ومرافق العيش ومطالب الحياة العملية . ودليلهم على ما يزعمون ذلك الفارق الظاهر بين ثقافة اليونان وثقافة المصريين .

وحقيقة الأمر أن البحث عن أسرار الغيب وقوانين الوجود يدخل في سلطان الكهانات القوية وأن هذه الكهانات القوية ترسخ وتتوطد وتبسط

يديها على العقول إلى جانب الدول العظيمة التي لابد من قيامها في أودية الأنهار الكبيرة . فحيثما وجد نهر كبير في صقع من الأصقاع لم يكن هنالك بد من قيام دولة عظيمة على شطيه تسوس الري والزرع وتصون الأمن وتضمن سلامة المعاملات . ومتى قامت هذه الدولة العظيمة لم يكن هنالك بد من الاعتماد على دعائم الدين وسلطان الكهانة والتفرد بحق البحث في العقائد والسيطرة على عالم الروح والضمير . وكثيراً ما تجتمع الوظيفتان في شخص واحد كما اتفق لبعض الملوك الأرباب أو « أنصاف الأرباب » في التاريخ القديم . فإذا أصبحت المباحث الغيبية والمعارف التي تتناول أصول الوجود حقا للكهانة تحميه الدولة فليس من المعقول أن تتسع الحرية للناس يفتون فيها ويفكرون كما تتسع لهم في غيبة الكهانة القوية والدولة العريقة ، ولا مناص من اختلاف مقاصد التفكير جيلا بعد جيل بين الأمتين حتى يلوح للنظر العاجل في النهاية أنه اختلاف بين طبيعتين أو معدنين من معادن الخليقة الإنسانية .

وقد كانت أمم الشرق القديم دولاً لها كهانات قائمة قبل أن تظهر الفلسفة اليونانية بألوف السنين ، فامتد تفكير اليونان إلى محاريب الفلسفة التي كانت حرما منيعاً في ظل الكهانات الشرقية لا يتخطاه عامة الناس . وظهر الفارق من أجل ذلك بين ثقافة اليونان وثقافة الشرقيين . ولو انعكس الأمر بين أرض اليونان وأودية النيل ودجلة والفرات لانعكست الآية بلا مراء .

ومما يؤيد هذه الحقائق أن الكهانة القوية صنعت في أوربا حين توطدت بها مثل ما صنعته الكهانات في الشرق القديم . فلما امتد سلطان الكنيسة البابوية على الأمم الأوربية ضربت الحجر على العقول فاحجم

الناس دهراً طويلا عن البحث الحر والتفكير في حقائق الوجود ، وبلغت الكهانة الأوربية على حداثتها ما بلغته كهانات الشرق بعد أحقاب وأحقاب تتوالى من بداية عهد التاريخ .

كذلك زعم بعض النقاد العسكريين من أهل أوربا أن الأوربيين يمتازون على الآسيويين والأفريقيين في معدن الشجاعة والبطولة الحربية ، واستدلوا على ذلك بانتصار اليونان مع قلتهم على الفرس مع كثرتهم في معركة ماراتون ومعركة سلاميس .

فالواقع الذي أسفرت عنه دراسات الثقات من النقاد العسكريين المحدثين أن الفخار الوطني قد لعب لعبته المعروفة بأخبار المركتين فبالغ فيها جد المبالغة وأضفى عليها ثوبا من الحماسة الخيالية خرج بها من حيز التاريخ الصميم إلى حيز الملاحم الهومرية .

فلم يدر في خلد « دارا » يوما من الأيام أن يستولي على أرض اليونان لأنها أرض جرداء لا تنفعه للزراعة ولا للتجارة ولا يخشى منها الخطر العسكري على دولته المترامية الأطراف . وإنما عناه أن يؤدب أريريا وأثينا لأنهما تجرأتا على معاونة اليونان الثائرين عليه في آسيا الصغرى . واغتنم لذلك فرصة الشقاق بين المستبدين وأنصار الحرية في أثينا أو قبيل إنه تلقى من زعماء الشعب المتمرد وعداً بالانضواء إليه وخذلان أولئك المستبدين فأخمد الثورة في آسيا الصغرى ثم زحف على « أرتريا » فعصف بها وأرسل أهلها أسارى وسبايا إلى شطوط الخليج الفارسي يسامون فيها سوم الأرقاء .

ثم تقدم إلى أثينا وفي حسابه أنها منقسمة على نفسها مسرعة إليه بالتسليم ولو من بعض طوائفها وزعمائها ، فلما وقع ما لم يكن في حسبان الفرس ولا اليونان واتفقت كلمة الأثينيين على الدفاع عن بلادهم لم

يشأ أن يطيل الحصار لأنه لم يقصد إلى إسقاط المدينة ولم يعد في الأمر ما يستحق المطاولة والعناء .

أما معركة سلاميس فقد كانت المصادفة فيها أغلب من التدبير .

شغل الفرس بعد معركة ماراتون بالثورة المصرية ثم خرج زركسيس لقتال اليونان في جيش ضخم مختلط الأجناس لكنه دون الضخامة التي صورها اليونان بكثير ، وكانت ضخامته واختلاطه عائقاً له ولم تكن من مزاياه ومرجحاته ، لأن قيادة جيش كبير من قبيل واحد أيسر جداً من قيادة نصف هذا الجيش وهو مختلط الأجناس متعدد الأهواء ، ولأن الجيش كان مرتبطاً بمعونة الأسطول الذي يلازم الشاطئ ويحمل له المؤنة والعتاد ويتكفل بنقله في المجازات البحرية ، فأصبح الجيش والأسطول معا مقيدين بطريق واحد لا يعدوانه ولا يغيب علمه عن اليونان ، ولما التقى الأسطولان في سلاميس كانت كثرة السفن الفارسية عائقاً للأسطول أيضا ولم تكن من مزاياه ومرجحاته . لأن المكان أضيق من أن يتسع لمناورات الأسطول كله ، ولأن زركسيس لم يتقدم إليه إلا لعلمه باختلاف قواد اليونان في إدارة الحربية ، وكان الواقع أنهم مختلفون وأن بعضهم أعلن في مجلس الحرب نية التراجع بمعظم السفن من سلاميس .

فلما نشبت المعركة قبل أن تم هذا التراجع كانت الكفة الراجحة في جانب اليونان ، وأصبح تمويز الجيش الفارسي ضربا من المحال بعد ضياع السفن التي منى بخسارتها في المعركة ، فعدل زركسيس عن المطاولة في المعركة البحرية وإن كان قد ظفر بالأثينيين في المواقع البرية

ولا شك أن الذي أصاب الفرس في هذه المعارك قد كان يصيب

اليونان لا محالة لو أنهم كانوا فى موقعهم وكانوا يتقلون الجيش مثل ثقلهم وعوق احتلاطه وتعدد أهواله

فليست المسألة كلها مسألة اختلاف فى معدن القوم أو صاحب السلالة ، ولكنها اختلاف فى الأحوال والملابسات ، وخليق بالذين يسون آفة الاختلاط فى الجيوش ويحسون معيبتها على الفرس أو الشرقيين دون غيرهم أن يذكروا أن الصليبيين على وفرة جموعهم وانتمائهم جميعاً إلى العنصر الأورى قد أصابتهم الهزيمة على أيدى الشرقيين وهم دولة واحدة تقل عنهم فى العدد والعتاد ، لم تعوز الصليبيين فى تلك المواقع حرارة العقيدة وشدة المراس .

ومع هذا ألا يقول دعاة البدعة الآرية أن الفرس قديماً من سلالة الآريين وأنهم أقرب إلى أمم الشمال من يونان الجنوب ؟

إن العالم الجسرى فردريك هرتز يذكر أن اختلاط الزنوج بأهل أوربا فى الزمن القديم ، ومن المفيد فى هذا الصدد أن ننقل هنا ما أوردناه فى كلامنا على مفاخر الأجناس بالجزء الثانى من « ساعات بين الكتب » . . . وهذا بعض ما جاء فيه :

« . للزنوج أثرق أوربا تدل عليه الجماجم التى وجدت فى ألمانيا وبلجيكا وفرنسا وكرواتيا وموراڤيا ، ووجد ما يشابهها منذ ثمانى سنوات فى أمريكا الجنوبية . وقد بقى أثر للأقوام السود فى جبال الألب إلى عهد بليى الذى تكلم عن هؤلاء الأقوام وعزيت كلامه القصص والأساطير .

ويزعم شمبرلين أن عرفان حقوق الحياة هو مزية الآريين التى لا يعرفها الساميون فى الشرق لاستغراقهم فى المادة وتقديمهم المال والحطام على الأذهان والأرواح فيجيبه الأستاذ هرتز بجواب مفحم هو المقابلة

البسيطة بين شريعة الرومان وشريعة حمورابى فى محاسبة المدينين فاللوح الثالث من ألواح القانون الرومانى يبيح للدائنين أن يقطعوا لحم المدين ويقتسموه بينهم وأن يقتلوه قتلا فى مدى سبعة وعشرين يوماً من يوم القبض عليه وتكبيله فى الحديد والحبال ، وأما شريعة حمورابى فهى تقضى بأن يخدم المدين دائنه ثلاث سنوات . والقانون يحميه فى خلال هذه الخدمة من سوء المعاملة والإرهاق . رد على هذا أن الفرق واضح بين الشريعتين فى أمور أخرى : منها أن السارق المضطر معذور فى شريعة حمورابى ، وهو غير معذور بحال من الأحوال فى شريعة الرومان ، وأن الأب الرومانى يجوز له أن يبيع أولاده ، ولا يجوز ذلك للآباء عند البابليين ، وأن الزوج البابلى لا يجوز له أن يقتنى السرارى بغير إذن من زوجته وليس للزوجة مثل هذا الحق عند الرومان ، وأن المدين يحق له أن يطلب الحط من دينه إذا نقصت غلة أرضه وليس فى الشريعة الرومانية شىء من هذا القبيل . وهكذا وهكذا من شواهد الرحمة وتقديم الحياة على الحطام فى شريعة حمورابى ثم من شواهد القسوة وتقديم الحطام على الحياة فى شريعة الرومان .

ويرجع شمبرلين اليونان إلى السماء ويقول إن علومهم وفلسفتهم وفنونهم مرجعها إلى طبيعتهم الآرية التى تمتازون بها على الآسيويين والساميين . فيقول له هرتز إن أرسطو فى زمانه كان يطرى مواهب الآسيويين فى الفنون ويحكم على أمم الشمال بالعقم الذى لا علاج له فى المعارف العقلية والسياسية لعلة الجو التى لا تبديل لها على تعاقب الأزمان ، ويقول هرتز أيضاً إن توسيديد المؤرخ اليونانى ، ذكر أن اليونان كلها كانت فى قبضة البرابرة ، وذكر هيرودوت أنه كان يسمع فى زمانه لغة البرابرة فى بعض

أنحاء وطنه . وأن العلماء المحدثين – كرشمر وكيسلنج وفك – أقاموا الأدلة على أن سكان آسيا الصغرى وسكان اليونان كانوا جنساً واحداً من الآسيويين ، فإن أسماء المواقع اليونانية لا ترد إلى معنى من معانى اللغة لأنها مشتقة من اللغة القديمة كما اشتقت منها أسماء الأرباب فيما يقول هيرودوت . والأقوال متفقة على ن طاليس رأس الفلسفة اليونانية من أصل أسيوى سامى وأنه تعلم العلم فى البلاد المصرية ، وكذلك تتفق الأقوال على أن زينون رأس الفلسفة الرواقية آسيوى الأصل والنشأة ، بل يقول فيرث : إن هومر نفسه سم سامى آسيوى محرف من « زومر » بمعنى المغنى أو الزامر ، وغير ذلك كثير من الأقوال عن الفلاسفة الآخرين .

ولا يريد هرتز أن يقف فى الإنصاف عند شعب من الشعوب ولا جنس من الأجناس . لأنه يرى أن الفواصل بين أى شعبين فى العالم ليست من البعد والحيلولة بحيث تستعصى على التقارب مع تشابه الأحوال ومؤاتاة الأيام . فهنيبال الزنجى الذى اقتناه بطرس الأكبر ارتقى بذكائه واجتهاده إلى رتبة مهندس فى المدفعية وبنى بسيدة من الأشراف . وكان حفيدها بوشكين أكبر شعراء الروس وأحد كبار الشعراء فى الدنيا ، وسليمان وهو زنجى آخر كان فى البلاط النمسوى فى القرن الثامن عشر بنى بسيدة شريفة واقترنت بنته بسيد من الأشراف ، وتزوج تاجر من هامبورج بنت سلطان زنجبار فلقت نأدبها ورجاحة لبها مكانة تغبط عليها فى البلاط الألمانى وأصبحت صديقة حميمة للإمبراطورة فردريك وكتبت لها ترجمة حياتها التى عنوانها « من قصة أميرة عربية » . وقد كان الدم الزنجى يجرى فى عروق دوماس الكبير ودوماس الصغير كما هو معروف

يقول هرتز « لا نرى أحداً يزعم أن هناك فجوة لا تعبر بين الحمص الأحمر والحمص الأزرق أو بين الحصان الأبيض والحصان الأسمر . أما فى بنى الإنسان فالفرق اليسير – مالعا ما طلع من التفاهة – كاف لأن يشئ من الأوهام الجنسية والعصبيات الشعبية أسخمها وأنآها عن الحقيقة . وما الفرق هنا مع هذا إلا اختلاف فى الدرجة لا فى الجوهر . فقد يريبنا الجهر أن الفروق الكثيرة بين ألوان بنى الإنسان إنما هى فروق فى درجات التجمع والتوزع فى مادة صبغة واحدة متماثلة فى الجميع » .

كلام إذا رجعنا به إلى الأسانيد والبينات فهو أقوى سنداً وأثبت بينة من كلام المغرقين فى تمجيد الأوروبيين وتفضيلهم على جميع الشعوب ، وإذا رجعنا به إلى الهوى فهو أقرب إلى هوانا وأولى بإصغائنا من كلام أولئك المغرقين .

فلا وقائع التاريخ ولا مباحث العلم ولا مشاهدات العيان تؤيد دعوى العصريين الذين يستخلصون من النوع البشرى كله نخبة واحدة ويفردونها بأفضل المزايا وأشرف الأخلاق بين السلالات الإنسانية .

ولكننا نتجاوز الحد المأمون إذا جاوزنا هذه الحقيقة إلى ما وراءها ، فكل ما هو محقق فى صدد المفاخر العنصرية أن العلم لا يؤيد الامتياز المطلق الذى يدعيه العنصريون لبعض السلالات ، ولكنه لا ينفى وجود الاختلاف بين العناصر ولا توارث الخصائص الجسدية وما يتعلق بها من الخصال النفسية . فهذه فروق موجودة يزداد ظهورها فى بعض الأفراد وينقص فى آخرين ولكنها لا تبطل ولا يتأتى لنا أن نتجاهلها ونتجاوز عنها إلا إذا تجاوزنا العيان وأعصينا عن المحسوس الماثل لجميع الأذهان .

وقد يوجد من العنصرين المختلفين شخصان يتشابهان وتصعب التفرقة

بينهما على الباحث المحقق فضلا عن الناظر في عرض الطريق . ولكن التشابه حيناً لا يمنع الاختلاف في جميع الأحيان . ولو ذهبنا نبطل المخالفة بين الأنواع كلما وجدت المشابهة بينها لأمكن إنكار الفارق بين الإنسان والحيوان على هذا القياس ، فإذا قيل إن الحيوان يمشى على أربع أمكن أن يقال كذلك إن بعض الإنسان يمشى على أربع ، وإذا قيل إن الحيوان أعجم أمكن أن يقال كذلك إن بعض الإنسان أبكم وإن بعض الطير ينطق كما ينطق الإنسان وإذا قيل إن الحيوان مسلوب العقل والتفكير أمكن أن يشار إلى أفراد من الناس لا يعقلون ولا يفكرون . وإذا قيل إن الإنسان والحيوان لا يتناسلان أمكن أن يقال إن الكلب حيوان والهر وهما لا يتناسلان

فوجود المشابهة في بعض الأفراد لا ينفي المخالفة في عامة الأفراد . . وقد يتعذر تعريف الفارق الحاسم بلغة العلم المقرر ولكنه مع ذلك يبقى فرقاً حاجاً إلى أن يوجد التعريف .

والحدُّ المأمون الذى لا نريد أن نتجاوزه في هذا الصدد هو ما أسلفناه من أن الدعوى التى تفرد بعض العناصر بأفضل المزايا وأشرف الأخلاق هي دعوى يعوزها الدليل القاطع من وقائع التاريخ ومباحث العلم ومشاهدات العيان . أما الاختلاف بين خصائص الأجناس فهو موجود لا شك فيه وإن تفاوتت درجات ظهوره في بعض الأفراد .

فمن المشاهدات – ومن البديهيات معاً – أن العزلة في النسب وفي التعرض للمناخ والبيئة وأحوال المعيشة وعادات الاجتماع تعقب النزلة في الصفات الجسدية والخلائق النفسية على السواء

ومن المشاهدات ومن البديهيات معا – أن الشعب الذى يقضى

عشرة آلاف سنة ولاءً في مكافحة العوارض الجوية والاحتيال على موانع الطبيعة والتأهب للمفاجآت من جرائه ومن طوارق الأرض والماء والسماء ، لا يشبه شعباً قضى مثل تلك الدهور في الدعة أو في التعويل على المصادفات وهو معفى من الحيلة والجهد في صراع الحياة .

وقد أظهر العلم الحديث أن التوارث في الخلق والخلق منوط بالناسلات Genes التى توجد في خلايا الذكور والإناث ، وأن هذه الناسلات تتقارب في أفراد القبيل الواحد كما تتقارب في أفراد الأسرة الواحدة . ولكننا لا نعرف اليوم على وجه التحقيق كم من الزمن يكفى لتحويل العوارض التى تنشأ من البيئة والمعيشة إلى موروثات تستقر في تكوين الناسلات وتنتقل من الآباء إلى الأبناء ، ولا نعرف على وجه التحقيق هل ما يوجد الآن من اختلاف الناسلات وليد الاستمرار الطويل في عوارض البيئة والمعيشة أو هو وليد أصل آخر من أصول الاختلاف في التكوين .

والذى يلوح لنا من المشاهدة المحسوسة ، ونعتقد أن العلم وشيك أن يثبته في تجربة من التجاريب المقررة – أن فراسة الوجه الإنسانى تدل على كثير ، وأن هذه الدلالة مرتبطة أوثق الارتباط بالأعصاب ثم بالعظام .

فأنت لا تخطئ تاريخ الأمة كلها إذا نظرت إلى وجوه أبنائها ، ولا يعوزك أن تعلم أن هذا الوجه السهل الذى تغلب فيه ملامح اللحم والدم على ملامح الأعصاب والعظام هو وجه أناس مارسوا في ماضيهم قليلا من الكفاح وقليلا من التجاريب وقليلا من حوافز الطوارئ ، وأن ذلك الوجه الحازم الذى يلفتك إلى متانة الأعصاب والعظام قبل أن يلفتك إلى بضاضة اللحم والدم هو وجه أناس ثاروا على الاعتزام والجلد ولم

يستسمنوا لسهولة العيش منذ زمن بعيد ، وليس فى وسعنا أن نعلم اليوم كيف تورث هذه الملامح الجازمة فى الوجوه ، فإن اللحم لا ينقلها والدم قد يحزن التناسلات ولكنه لا يحزن القوى التى هى من قبيل الطاقة الكهربائية فى الأحياء وغير الأحياء ، فأغلب الظن إذن أنها تنقل فى مخازن الأعصاب ثم فى مخازن العظام ، ولعلها تنحصر فى الأعصاب على نحو لا يصعب على العلم — فيما نقدره — أن يهتدى إليه ، وقد يكون للأعصاب فيها اتصال كبير بالدماغ وسرعة الاستجابة بينه وبين مواطن الانتباه والتنبيه .

ومهما يقل العلم غداً فى هذه المسألة فالذى نجزم به منذ الساعة أن وجوه الأمم التى قضت ألوف السنين فى الجلد والاعتزام تخالف وجوه الأمم التى تيسرت لها المعيشة طوال تلك السنين ، وإن الاستدلال بملامح الوجوه طبيعة فى جميع الأحياء ، لأن الحيوان ينظر أول ما ينظر إلى وجه الحيوان الذى يقابله ليعلم هل يسالمه أو يناجزه ويتحداه ، وإن كانت الوجوه لا تبدى كل ما فى النفوس والعقول فهى كذلك لا تخفِ كل ما فى النفوس والعقول .

وحسبنا الآن أن العلم يثبت كما تثبت المشاهدة أن خصائص الأجناس تورث إلى زمن بعيد ولا سيما حين ينحصر التزاوج فى أبناء القبيلة الواحدة أو الوطن الواحد ، وإن بعض العادات الاجتماعية التى تنجم من تشابه المعيشة تثبت فى الأفراد بعد زوال أسبابها إلى حقبة طويلة ، وإن الأبناء ينقلونها عن الآباء بالقدوة والتلقين وإن لم ينقلوها بالوراثة كما تنقل الخصائص التى تتمثل فى التناسلات .

وليس بنا هنا ان نبسط القول فى خصائص الأجناس جميعها ، لأن

الجنس الأسود هو الذى يعنينا منه فى هذا الكتاب ، وهو من الأجناس التى يسهل تمييزها بالخصائص الموروثة وعادات القدوة والمعيشة ، والاختلاف فى وصفه أقل من الاختلاف فى وصف غيره من الأجناس البشرية الخمسة أو الثلاثة على رأى بعض المتأخرين .

ونحن ننقل هنا شذرات من أوصافه فى كتب علم الأجناس وعلم الإنسان ونصحح بعضها ببعض ونضيف إليه ما نعلمه من خصائص هذا الجنس بالمعاشرة والاختبار .

قال الدكتور سايس Sayce صاحب كتاب أجناس العهد القديم :

«إن الزنجى مستطيل الوجه شديد بروز الفكين مع ضمور فى الذقن ، أنفه أفطس واسع المنخرين ، وشفتاه غليظتان ، وأسنانه كبيرة جيدة ، وضرس العقل منها يظهر سريعاً ويذهب أخيراً ، وهو بسيط الجمجمة طويل الذراعين ، ورَبلات ساقه معيبة ، وقصبة رجله منبسطة مع انقباض فى الإبهام ، ومادة الصبغة السوداء فى الزنجى كما أسلفنا تسرى إلى عضلاته وقد تسرى إلى دماغه وهو بالقياس الى الأدمغة الأخرى بسيطة التلافيف . وميله إلى الطرب قليل ما عدا الموسيقى فهو مغرم بها أشد غرام ، ومن عاداته أن يتأثر بالشعور دون التفكير . ويقال إن أبناء الزنوج قلما يتقدمون بعد الرابعة عشرة ، يغلب عليه الكسل والإيمان بالخرافة ومن طبعه العطف والوفاء . وهما خصلتان ترغّبان من قديم الزمن فى اقتنائه واستخدامه . فمنذ عصور الفراعنة فى الأسرة الأولى كانوا يبعثون الحملات إلى بلاد كوش لاستجلاب العبيد منها ، وكان عدد الزنوج المجلوبين كبيراً على الأغلب فى جميع الأزمان . ولعل عبد ملك الذى

أنقذ حياة النبي أرميا كما جاء في الأصحاح الثاني والثلاثين كان من الزنوج وكذلك الكوشي جد اليهودي الذي جاء ذكره في الأصحاح السادس والثلاثين إذ يقول : (فأرسل كل الرؤساء إلى باروخ يهودي ابن نثنيا بن شلميا بن كوشي قائلين : الدرج الذي قرأت فيه في آذان الشعب خذه بيدك وتعال) .

«ومع تقدم الاتصال بالحضارة المصرية تلك القرون الطوال لم يحصل الزنجي منها على الأرجح غير صهر الحديد ، فجاء عصر الحديد معقباً لعصر الحجر توًا في تاريخ بعض القبائل بغير توسط من عصر الشبه أو النحاس .

« والزنجي مقلد شديد الميل إلى التقليد . ولهذا يلفت النظر أنه لم يظهر قط رغبته في الرسم خلافاً للمصري المثقف ، بل خلافاً لأبناء قبائل البوشمان المقيمين بأقصى الجنوب في القارة الإفريقية ، فإن رسوم الحيوان على الجدران التي تحتمي بها قبائل البوشمان حية ملهمة ومنها ما ليس يُخجل الفنان الأوربي إذا نسب إليه ، وهي على الجملة تفضي بنا إلى سؤال عن قدم الجنس الزنجي في التاريخ .

«ففي جنوب مصر تشاهد الصخور الرملية التي تغطيها رسوم الحيوان والإنسان ومنها الحديث الذي لا شك في حداثته والقديم الذي لا شك كذلك في قدمه ، ويرى على الصخر الواحد شيء من تلك الرسوم ونقوش ترجع إلى الأسرة الخامسة ، فأما النقوش الأخيرة فيبدو عليها تغيير قليل من أثر العوارض الجوية حتى ليحيل إلى الناظر إليها أنها من عمل أمس القريب ، وأما الرسوم الأولى فيبدو مما أصابها من أثر العوارض الجوية أنها قد مضى عليها ردح طويل من الزمان ، ويرى — عدا هذا —

بين الرسوم رسم الزرافة كثير التكرار ، فإذا لاحظنا أن ذلك الإقليم كان أرضًا قاحلة من بداية التاريخ المصري دل حضور الزرافة في رسومها على عهد بعيد القدم كانت فيه تلك الأرض بطاحًا مروية بالماء تغطيها أشجار الحسك التي يرعاها الزراف . وينتشر رسم النعامة في تلك الرسوم كما ينتشر رسم الزرافة مع اختفاء رسم النعامة من المقاطع الهيروغليفية التي تمثل فيها الطيور المصرية على وفرة ملحوظة ، وخليق بهذا أن يدلنا على أن النعامة لم تكن معروفة عند مخترعي الكتابة المصرية الأولى ، وأن سير فلاندرس بتري على حق حين يستخلص من هذا أن الرسوم التي ذكرناها هي بقايا متخلفة مما قبل التاريخ لأسلاف المصريين في وادي النيل . وتؤيد رأيه كشوف السائحين في جهات أخرى من أفريقية الشمالية حيث تشاهد أمثال تلك الرسوم في جنوب تونس ومراكش . وقد أستطيع الاهتداء إلى تاريخها التقريبي من حالة واحدة أمكن العثور عليها ، فإن الدكتور بونيه Bonnet وجد في وهران الأداة الحجرية التي كانت تنقش بها تلك الرسوم ملقاة تحت بعض الصخور التي عليها تلك الرسوم ووجد على مسافة غير بعيدة منها المصنع النيولوي الذي تصنع فيه تلك الآلات ، ومن ثم يفهم أن الرسوم ترجع إلى العهد السابق لاستبدال الآلات المعدنية بالآلات الحجرية . وهو عهد في مصر جد بعيد .

«فمن المحتمل إذن على ما يظهر أنه في العهد الذي كانت فيه الصحراء الكبرى مخصبة وكانت دال مصر مراعًا من البحر الملح كان جيل من الناس قريب إلى جيل البوشمان ينزل في أفريقية الشمالية بين السواحل الأطلسية وشواطئ نهر النيل ، ولعل قبائل الأكاسين وغيرها من قبائل الأقزام المستديرة الرءوس في أواسط أفريقية بقية ذلك الجيل

القديم ، وقد أجلتهم عن مواطنهم غارات الزنج ولم تزل بهم غارات قبائل البانتو أو الكافرين حتى ألجأتهم إلى جنوب القارة الأفريقية ، وقد كانوا جسديا دون أعدائهم فى القوة وإن لم يكونوا دونهم فى المزايا الأدبية ، وكانوا على كلٍّ ذوى ملكة فنية تعوز الزنج والكافرين على السواء وهى ملكة الرسم. إذ لم يكن فى وسع الزنجى أن يرسم أو يتمم رسوم الصخور فى بلاد البوشمان ولا رسوم الصخور فى أفريقية الشمالية.

«وقد كانت الجبال التى تحد الصحراء من الشمال مسكن قبائل من اللوبيين منذ عهد سحيق فى القدم . وقد وصفنا هذا الجيل آنفا وبينا أنه ينتمى إلى سلالة مميزة من سلالات الجنس الأبيض، وربما شاهدنا اليوم فى قرى إنجلترة وأيرلندة فروعا من تلك القبائل على حسب الملامح الظاهرة ، والنموذج العتيق الذى تبديه لنا تلك القبائل تؤكد لنا الآثار المصرية كما تحلوه الملامح البيضاء التى بقيت له إلى الآن....»

* * *

وكلام الدكتور سايس هذا فى أوصاف الجنس الزنجى وتاريخه العريق قليل الخطأ كثير الصواب ، أو هو من أصح ما كتب فى هذا الموضوع ، ويزاد عليه من كتب الأجناس الحديثة أو كتب علم الإنسان أوصاف أخرى يعد بعضها من قبيل التصحيح وبعضها من قبيل التكملة ، نأتى عليها بإيجاز.

فاللون الأسود فى الأجناس السوداء لا يتعمق إلى ما وراء البشرة الظاهرة ثم تتساوى ألوان الجسم الإنسانى فى جميع الأجناس ، وإنما يأتى السواد من صبغة فى الغشاء الذى يلى البشرة الظاهرة . ولا يسرى على ما وراءه إلا عرضا فى قليل من الأفراد.

وقد تفهم دلالة الضيق والسعة فى تركيب الجمجمة إذا فهمنا أن جمجمة الجنس الأبيض بين الأوربيين ليست أوسع الجماجم الإنسانية ولا أوسع من جماجم غيرها من الأمم التى لا تجاريهم فى الحضارة . فإذا حسبنا قطر الدماغ من الأمام إلى الخلف مائة فنسبة العرض إليه فى الزنجى سبعون وفى الأورق ثمانون وفى الساموى من أبناء الجزر المعروفة غرب المحيط الهادئ خمسة وثمانون.

والزنجى طويل الذراعين تصل ذراعه إلى الركبة فى بعض الأحيان. وشعره الصوفى المعروف هو أوضح العلامات المميزة له بين جميع الأجناس.

أما مزاياه الثقافية فيجب أن نذكر حين نقابل بين تخلفه وتقدم الأجناس الأخرى أنه قد بلغ من الثقافة كل ما يحتاج إليه . وأن العبرة بالمجهود العقلى الذى يتطلبه فهم أمر من الأمور لا بالطبقة الثقافية التى تحسب لذلك الأمر فى سلم الثقافة العامة. فالمعادلات الرياضية العليا أرقى فى سلم المعرفة من الجمع والطرح فى الحساب . ولكن المعادلة الرياضية العليا لا تتطلب من ذهن المهندس المتعلم جهداً أكبر من جهد الرجل الزنجى حين يفهم أن خمسة فى خمسة تساوى خمسة وعشرين ، ولا سيما إذا كانت نهاية العدد عنده هى مجموع أصابع اليدين والرجلين . أى عشرين.

وقد عرف أن الزنجى فى قبائل «الوى» التى تقيم عند «سيراليون» قد اخترع نوعًا من الكتابة يوائم حاجاته ولا يرجع إلى أساليب الكتابة الأخرى التى عرفت فى بلدان الحضارة

أما حظه من الفنون فليس بالحظ القليل إذا نظرنا إلى حاجاته

الطبيعية ودواعيه الضرورية إلى المعيشة الاجتماعية ولعل «هافلوك إيليس» حين قال : «إنه قد سلك سبيله إلى الحضارة راقصًا» قد لخص ملكاته الفنية أجمل تلخيص.

فالرقص لا يكون بغير نغمات ، والمرح المطبوع فى الزنجى هو مبعث وحيه الذى ألهمه الرقص والغناء، فهو عظيم الولع بالأغانى سريع الأخذ إلى الفاظها حين يسمعها مرة أو مرات قليلة، ويصعب أن نفرق بعض التفرقة بين ملكة الموسيقى وملكة الغناء والإيقاع لأن الأصوات الموسيقية تلغ من التراكيب والتنوع مبلغًا يبعدها من الإيقاع الذى يصاحب حركات الأجسام فى الرقص العطرى أو الرقص الحديث.

والزنجى يحب الغناء الراقص ويبرع فيه ، وقد عرف به حيث نزل من بلاد العالم فى عصور التاريخ ، ومن هذا رقص النوبة الذى علمنا — فى سيرة النبى عليه السلام — أنه دعا السيدة عائشة رضى الله عنها إلى التفرج به والنظر إليه ، وكان يعرف بالزفيف لسرعته وتوالى الحركة فيه.

ولما اشتغل الزنجى بالفنون الأخرى كصنع التماثيل كان الإيقاع رائده الأول فى هذه الصناعة التى قد يظهر للوهلة الأولى أنها بعيدة عن الغناء. لأن النسب التوقيعية كانت تغلب فى التماثيل الزنجية على مشاهدات الحياة ، وكانت منذ وجدت تنقل الشبه ضحسن نقله ولكن على نمط واحد يقل التصرف فيه ، وهى لا تزال اليوم بحيث وجدت منذ آلاف السنين.

وشيوع التماثيل وصوغ المعادن ونسج الثياب الموشاة بالخطوط والأشكال مع ندرة الرسم فى قبائل الزنج أمر لا غرابة فيه ، لأن تقليد الجسم فى أبعاده الثلاثة أسهل من تقليده فى بعد واحد ، وهو التقليد

الذى يوجب التصرف لتمثيل العرض والطول والقرب والبعد حيث لا عرض هناك ولا اقتراب ولا ابتعاد.

ولتماثيلهم — مع غلبة الإيقاع عليها — سمة أخرى تعرف بها بين سائر التماثيل القديمة. وهى سمة المخوف والتخريف ، وهى كذلك سمة لا غرابة فيها إذا نظرنا إلى الأخطار التى تحدق بالزنجى بين الوحوش والحيات وآفات الأرض وصواعق السماء. نظرنا إلى الغرض الذى يتوخاه من صنع كثير من تماثيله ، وهو لبس الوجوه والأقنعة التى تخيف أعداءه فى ميدان القتال.

ولم تزل فنون القتال عند الزنجى ضربا من الفن الجميل لأنها تمزج بين الحركة الرياضية وبين الرقص والإيقاع والغناء. وليس أشبه بمناظر الرياضة البدنية من منظر الزنجى وهو يقذف بالرمح ويوازن بين وضع يديه وكتفيه وبين وضع صدره وكشحه حين يقذف به فيقع حيث أراد ، كأنه قد ركزه فى الهدف بيمناه

والزنجى شجاع مقدام لا يهاب الموت ولا ينكص عن الألم. وقد تلهبه السياط ويسيل الدم من أهابه الممزق وهو صابر لا يتلوى ولا يتأوه. لأنه يحسب الفرار من الألم كالفرار من الموت جبنًا لا يجمل بالرجال. وقد عودته مجالدة الوحوش والأفاعى والعادوه الدائمة من المتربصين به أن يقسو عليها وأن تقسو عليه ، وأن يحتمل القسوة على نفسه كذلك ... وفيه إلى جانب الصبر والشجاعة عناد شديد حين يخشى أن يتهم بالجبن إذا صدع بالأمر فراراً من العقاب.

وهو مصدق وفىّ يؤمن بالعقائد التى توارثها عن أسلافه وأكثرها من

قبيل السحر وعبادة الأرواح الخفية ، وتقديس الرُّقَى والتعاويذ التي تعصمه من فعل تلك الأرواح

والولاء فيه طبيعة لأنه نشأ على طاعة الرئيس في القبيلة وطاعة الساحر الذي يحمه ويحميه . وقلما يغدر أو يخون إذا وجد من يكسب ثقته ويشتمل على عطفه وولائه . وإنما يغدر ويخون إذا توحش وسلبت منه الطمأنينة ، فإنه ليرجع إذن إلى حياة المخاوف والأخطار التي علمته الحذر الدائم بين الوحوش والآفات . أو بين الأسرار الغوامض التي يتكفل الساحر بخلاصها له على ما يعتقد ويروم . فيعمل في حالة التوجس وسلب الطمأنينة عمل الطريد المطارد أو عمل الهاجم الذي يتوقع الهجوم من كل مكان فلا يبالي ما يصنع وهو حاسب يائس محروم من العطف والجوار .

وينبغي – قبل مراقبة الزنجي وتسجيل عوائده – أن ننسى أننا نراقب خلقة غريبة تخالف ما طبعنا عليه . لأننا حريون أن نستغرب كل شيء إذا نحن بوقعنا الغرابة والاستغراب . فيمر بنا العمل الذي يعمله أبناء لغتنا وعصرنا دون أن نلتفت إليه . ثم يمر بنا هذا العمل بعينه حين يعمله الغريب فنسرع إلى التفته له ونحسبه من البدوات التي لا تصدر إلا عن أمثال ذلك الغريب . وكثير من غرائب الزنوج أو غرائب الأجناس عامة لا تحسب من قبيل الغرائب إلا على هذا الاعتبار .

* * *

ولو شاء الناس لالتفتوا إلى هذه الملاحظة في الحقائق الاجتماعية الكبيرة كما يلتفتون إليها كل يوم في الحقائق الاجتماعية الصغيرة . فإننا نسمع العامة في كل مكان يتحدثون عن بعض المشهورين بالسوء فيقولون عنه «إن صوفته حمراء» ويعنون بذلك أنه يعمل الشيء الذي يعمله غيره

فسرعان ما يتنبه إليه الناس ويتعقبونه بالذم والتشهير . ويمضي غيره بفعلته دون أن يتنبه أحد إليه فضلاً عن ذمه والتشهير بسمعته . وهم يستعيرون هذا الوصف من لغة الرعاة الذين يفردون الخروف «الأحمر» بالزجر والعقاب وهو لا يصنع شيئاً غير الذي يصنعه إخوته في القطيع من ذوات الفراء السود . ولكنه يظهر وهي لا تظهر . فيعاقب وحده وتنجو هي من الملاحظة والعقاب .

والجنس الأسود له غرائبه الكثيرة في الأخلاق والعادات . ولكننا إذا بدأنا بالاستغراب أو كان الاستغراب سابقاً للمراقبة كنا خلقاء أن نجد الغرابة حيث لا غرابة على الإطلاق وحسبنا أنه يخالف الناس في أصول الطباع وهو لا يعمل إلا ما يعمله في مكانه سائر الخلق من أبناء آدم وحواء .

أما مداركه العقلية فمن الواجب قبل الحكم على طاقتها الأصيلة أن نذكر الضرورات المختلفة التي باعدت بينه وبين أجيال البشر الأخرى في مواطن الإدراك . وهي مباحث العلوم والصناعات .

فليس من قصور العقل وحده أن حد الزنجي مقصراً عن الأجناس البيضاء والسمراء في علوم الهندسة والفلك والطبيعة والكيمياء . لأن حياته لم تلجئه قط إلى الملاحة في البحار الواسعة فيعرف ما عرفته الأمم الأخرى من حركات الأجرام السماوية ومن علوم الفلك والظواهر الجوية والأنواء . ولم تلجئه قط إلى إقامة الصروح ومزاولة البناء بالأحجار فيعرف من قواعد الهندسة وصناعات النحت والعمارة ما عرفته الأمم التي تهيأت لها الوسائل ودفعتها الضرورات إلى التشييد والتعمير . ولم تلجئه قط إلى توقيت مواعيد الري ولا السيطرة على مجاري الماء فيتعلم الهندسة ويدرك خصائص

الجوامد والسوائل ويراقب أسباب الخصب والقحط مراقبة المدير المسئول عن عواقب الإهمال في هذا التدبير . ولم تلجئه قط إلى الافتنان في طهو الغذاء ونسج الكساء وصوغ الآنية والأدوات التي تستخدم في هذه الأغراض ، ولم تلجئه قط إلى تفتيق الحيلة في حفظ الطعام وادخاره وصيانته من العطب والفساد ، ولا ألجأته إلى تفتيق الحيلة في ابتداع أفانين الحرب من مطاولة للحصار وتنويع للأسلحة واعتياد على أسلوب في الكر والفر غير أساليب الأحياء المحدقة به في الجرأة تارة والاستخفاء تارة أخرى ، لأن أبناء القارة أجمعين درجوا على نمط واحد في الهجوم والدفاع واستخدام السلاح وتشابهوا في مواقع واحدة يسكنها المغيرون والمدافعون ، فلا حاجة بهم إلى التفوق والاحتيال على مختلف المواقع والأسلحة والأساليب .

وكل ما احتاجوا إليه من ضرورات المعيشة وجدوه سهلا ميسراً غنياً عن الجهد والحيلة في مواعيده التي تعودوها ، فإذا بقي من وراء ذلك سر يجهلونه أو محذور يتقونه فهنالك الساحر كفيل به يكفيهم مؤنته إذا صدقوه وأطاعوه ، ومن ثم عاشوا حياتهم كلها وقضوا عصور التاريخ وماقبل التاريخ وهم بين الدعة والطمأنينة إلى العيش ، وبين القتال والجلاد ، وبين التصديق والتعوذ بالرقى والطلاسم . ولزموا هذه الحالة أعواماً بعد أعوام وأحقاباً بعد أحقاب ، بغير حاجة إلى التبديل أو التجديد .

فالأمم التي عرفت الهندسة والفلك والعمارة والكيمياء وأدوات البذخ والرفاهة إنما عرفتها لأنها لا تستطيع أن تعيش في بيئتها حقبة طويلة بغيرها ، ولو عاشت في القارة الإفريقية كما عاش الزنوج لأهملتها ولم تفكر فيها ، ولاشك أن الزنوج لو بدأوا الحياة الاجتماعية حيث بدأها أولئك

الأقوام لاخترعوا اختراعهم وفهموا فهمهم وعرفوا معرفتهم وأعادوا سيرتهم بغير فارق كبير في جوهر الأمور .

أما الطب ومداواة الأمراض فكل ما أحدثه الإنسان الفطري بمعزل عن العلوم الأخرى فقد حذقه السود وبرعوا فيه ، ولم تفتهم خاصة لازمة لهم من خواص العشب والنبات أو خواص الإيحاء والتأثير بالعقيدة والتنويم .

ونحن لا نعني بهذه المقابلة بين ضرورات السود وضرورات غيرهم من أجناس البشر أن الفرق بينهم وبين تلك الأجناس معدوم أو قريب التحصيل والاستدراك ، ولكننا نعني أنه يرجع إلى أسباب تجوز عليهم كما تجوز على غيرهم فهم وسائر البشر في أصولها سواء .

ولو نظرنا إلى النصيب الذي تيسر لهم من الثقافة الأدبية فحصلوه وأجادوه لعلمنا أنهم حريون أن يبلغوا بالعطف والمعاملة الحسنة شأواً محموداً في مجال الآداب والعلوم ، فقد نبغ منهم في العربية شعراء معدودون من طراز عنترة وسحيم عبد بني الحسحاس ونصيب والأغربة المشهورين الذين أجادوا الحماسة كما أجادوا الغزل والنسيب ، وبين غزلهم والأغاني المرقصة التي عكف عليها السود من آلاف السنين صلةٌ قريبة لا تصعب التفرقة فيها ، ولكن الطبقة الفنية — والنفسية — التي ارتفعوا إليها في ذلك الغزل تدل على أن الآباد الطوال التي قضوها في المعيشة الأبدة لا تحجبهم عن الظرف الاجتماعي إذا وجدوا السبيل إليه ، وما أحسب شاعراً من شعراء الحضارة يرتفع عن توقيع هذه الأبيات التي نظمها سحيم لمعشوقة مريضة فقال :

ماذا يريد السقام من قمر   كلُّ جمال لوجهه تبع

مايرتجى الخاطب من محاسنها   أماله فى القباح متسع ؟
غير من لونها وصفرتها   فازداد فيه الجمال والبدع
لو كان يبغى الفداء قلت له   ماأنا دون الحبيب ياوجع

فى هذه الأبيات من روح المكاهة ودعابة الظرف والمعطفة إلى محاسن الملاحة المريصة والحرة بتدليل النساء غير قليل .

* * *

ويبدو لنا أن فوارق الإدراك لم تصل العقول فى أمر الجنس الأسود كما ضللها ذلك اللون المقل للنظر قبل منزل العوارق العقلية والخلقية للبصائر والأفكار . فعاملتهم الأمم منذ أقدم العصور معاملة لامودة فيها . وانطلق النخاسون فى طريق لبحر الأحمر وبحر الهند ونهر النيل يحملونهم إلى بلاد العرب ومابين النهرين .

كما يحملونهم إلى مصر واليونان والرومان ، ولم تكد الدنيا الجديدة تكشف لأبناء الدنيا القديمة حتى شاطرتها فى هذا البلاء الذى نكب به أقدم الأمم من ألوف السنين ، ولعل فضائل هذا الجنس — وفى مقدمتها الوفاء والصبر والقناعة — كانت أسرع من نقائصه فى الجناية عليه . ولهذا تمادى النخاسون فى نقل السود إلى أمريكا وانقطعوا عن نقل الهنود الحمر إلى أوربا بعد سنوات قليلة . لإخفاق التجربة وضياع الأمل فى صلاح هؤلاء الهنود « للتطبيع » والعمل المفيد .

وخلاصة مايقال فى تاريخ الجنس الأسود إنه جنس قديم معرق فى القدم يوغل فى أصوله إلى ماقبل التاريخ بزمن بعيد .

وإنه جنس قد قف به النماء عند حدود الفطرة الأولى لأن معيشته فى

القارة الإفريقية لم تلجئه إلى كشف العلوم وتعمير المدن واختراع الصناعات وتدبير وسائل الادخار والحيطة لمستقبل البعيد . ولكنه عرف كثيراً من الفضائل والملكات التى تواتيه فى بيئته المستقرة . لأنه عرف النضال والمرح والإيمان . فعرف الشجاعة والوفاء والصبر على الألم . واستبسط العرف التى توافق مرحه وإيمانه بالمجهول

وكأنما اتفقت عليه منذ القدم عوادى الاجحاف جميعاً ولم يسعده حظه باعث واحد من بواعث الإنصاف والرعاية . فاصطلحت عليه أسباب الجشع والاستغلال وعرابة المظهر وقلة الحلة فى الدفاع وسهولة التطبيع والتعويد ، وجعلته هدفاً يسيراً للقناصين والنخاسين الذين يحمرهم الطمع ولايزعهم عنه وازع من وشائج العطف أو روادع الأخلاق .

ومضى العهد به على ذلك عصوراً طوالاً بعد عصور طوال إلى عصرنا هذا الذى نحن فيه . فقامت الثورات بعد الثورات باسم الإنسان وحقوقه ، واشتعلت فى الكرة الأرضية حربان عالميتان فى النصف الأول من هذا القرن العشرين ولاتزال الكلمة الدقية التى تقال لإنصافه وحماية حوزته أكبر وألزم من الكلمة التى قالتها الحضارة الحديثة إلى الآن .

فى هذه السنة التى نحن فيها (١٩٤٥) انعقد مؤتمر الجماعات التى تشتغل بالتبشير فى الجزر البريطانية ووجه إلى العالم نداء شديداً أهاب فيه بأمم الحضارة إلى محو الفوارق القائمة بين لبيض والسود فى المستعمرات البريطانية ، وأعلنت لجنة الكنائس البريطانية موافقتها على قرار المؤتمر وهى ترجو معه « أن تنبذ الأمم المتحالفة وعودها المتكررة بالتسوية بين الألوان والعناصر فى فرص التعليم والحياة »

ولاتزال الفوارق الجنسية قائمة فى الولايات المتحدة على تعدد

الدعوات فيها إلى المساواة والإعراض عن المزاعم العنصرية التي روجتها خصوم الدولة الأمريكية في الحرب العالمية الحاضرة ، ففي الولايات الجنوبية تقوم الفوارق بين البيض والسود بنصوص القوانين والأوامر الحكومية . ولايباح للسود الجلوس مع البيض في المركبات العامة ولاالنزول معهم في الحانات والفنادق . ولاتعليم أبنائهم في المدارس التي يتعلم فيها أبناء البيض . ولما صدر القانون الذي يخول الطفل الأسود حقاً في التعليم كحق الطفل الأبيض مع انفصال المدارس والجامعات — تبين من التعمية أن المساواة صورة لاحقيقة ، وأن التلميذ الأبيض يكلف الدولة في تسع ولايات من ولايات الجنوب نحو تسعة وخمسين ريالا في السنة ولاتزيد كلفة التلميذ الأسود فيها على تسعة عشر ريالا على الرغم من نص القانون . وتبين أن الفارق في ولاية مسيسبي يتجاوز ذلك كثيراً لأن الدولة تنفق على الطفل الأبيض ريالين وخمسين ريالا ولاتزيد نفقة الطفل الأسود على سبعة ريالات ونصف ريال .

وقد ألغى في ولايات الشمال معظم القوانين التي تنص على التفرقة بين البيض والسود ، ولكن هذه التفرقة مازالت قائمة بحكم العرف والعادة على نحو لايقل في صرامته عن صرامة القانون . فلايرى الأسود نازلا بفندق من الفنادق الكبيرة أو جالساً في مطعم من المطاعم الفاخرة ، وإن كان من أصحاب الثراء .

* * *

وإبطاء الحضارة الغربية كل هذا الإبطاء في تقرير مبدأ الإنصاف — فضلا عن تنفيذه — هو المقياس الصادق لسبق الشريعة الإسلامية في هذا المضمار الإنساني المتوعر المهجور من قديم الدهور ، فإنها خلصت إلى

أدب الإنصاف والمساواة بين بني الإنسان منذ أربعة عشر قرناً بغير ماحافز من المصالح الاقتصادية أو من عادات العرف والأخلاق . بل خلصت إليه على كره من تلك المصالح وعلى رغم من تلك العادات . واحترزت على سلطان المادة الطاغية بسلطان الروح الرفيع . ولايحسب الدين ديناً مالم يكن له سلطان روحي يغلبه على طغيان المصالح والشهوات .

* * *

وقد كان هذا السلطان الروحي هو السلطان الذي أذعن له السادة والعبيد عند ظهور الدعوة الإسلامية بين قبائل البادية العربية . واشتمل على بلال بن رباح صاحب هذه السيرة وهو مولى ضعيف غريب في أرض الحجاز . كما اشتمل على أبي بكر والفاروق وعثمان بن عفان وهم سادات مكة وأقطاب قريش

والذي يعنينا في هذه المقدمة عن تاريخ الأجناس والجنس الأسود خاصةً أن نصح الملتقى بيننا وبين صاحب هذه السيرة بلال

وليس الملتقى بينها بعسير.

فن مجمل الصفات المتواترة التي وصف بها بلال يتراءى لنا أنه قريب الملتقى بخصائص الجنس الأسود التي أجملناها في هذه الصفحات

ولايجب أن تقول إن الذي يتصف بتلك الصفات لن يكون حتماً لزاماً إلا من الجنس الأسود بخصائصه المعلومة . فلا يزال من الجائز جداً أن يكون بلال على تلك الصفة — فيما عدا اللون — ولايكون من القبائل الإفريقية السوداء . ولكن الذي يقال ولايتجاوز حد الصحة في المقال أنه لو لم يكن كذلك لكان هذا من غرائب المصادفات . ولاداعية عندنا الآن لتقدير تلك المصادفات

فلو لم يكن بلال أسود الإهاب لكانت فى صفاته النفسية علامات لاتستغرب فى الأجناس السوداء لأنها من خصائصها المميزة التى تبرز فيها عند مراقبتها على الإجمال . ومنها حب الإيقاع الموسيقى وسليقة الإيمان والتضحية والعناد والصبر على عذاب الجسد والوفاء لمن يستولى منه على مكان الثقة والإعجاب .

ولكن الجنس الأسود لايحتويه كله على مايظهر من بعض صفاته الجسدية فيما عدا لون السواد . فلم يوصف بالفطس ولابغلظ الشفتين ولابالشعر المتقبض المتصوف الذى خص به الزنوج ، والذين يشاهدون على هذا التكوين بين أمم أفريقية الشرقية كثيرون حتى هذه الأيام ، وتحقيق تاريخهم يدل على امتزاج قديم بالأجناس السامية أو بالعربية منها على التخصيص ، لأن رحلات العرب إلى سواحل أفريقية الشرقية قديمة قبل الإسلام بزمن بعيد .

ومن علماء الأجناس من يربط بين حلة الأحباش وحلة العرب – ولاسيما اليمانية – برباط وثيق ، لأن عبور أهل اليمن إلى الحبشة وعبور أهل الحبشة إلى اليمن ميسران معهودان من أقدم العصور .

وقد قيل فى تاريخ بلال إنه من الموالى المولدين بمكة أو بالسراة اليمانية . فأصدق مايقال فيه إنه من سلالة زنجية سامية . وأنه على أقرب مايكون الزنج من خلائق العرب أو المستعربين .

العرب والأجناس

ألممنا فى فصل سابق بأقوال بعض العلماء فى مسألة العصر وموازين الأجناس ، فأياً كان قول العلم فى هذه العصبية العنصرية — أو الجنسية — فالقول الذى لا ريب فيه أن هناك شيئين مختلفين يدوران حول هذه العصبية ، ويلتبسان فى بعض الأحوال فتجب التفرقة بينهما : وهما المفاخرة الجنسية والعداوة الجنسية .

فقد تكون مفاخرة جنسية ولا عداوة .

وقد تكون عداوة جنسية ولا مفاخرة .

لأن المفاخرة طبيعة الجماعات حيث كانت من قديم أزمانها ، وقد توجد المفاخرة فى الأمة الواحدة بين أهل الحضر وأهل القرى ، أو بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب ، وقد تتفاخر البطون من القبيلة الواحدة ولا تتعادى ، وقد تتعادى ولا تتفاخر ، وقد تتفاخر وتتعادى فى آن ، وهى من جنس واحد وقبيلة واحدة .

وعندنا فى مصر مفاخرات كثيرة بين أبناء القاهرة وأبناء الإسكندرية ، وبين أبناء الصعيد وأبناء الريف ، ومفاخرات أخرى حول اللهجات والأذواق والأطعمة لا تتجاوز الفكاهة إلى الحد فى عامة أوقاتها

ومثلها متكرر يشاهد بين أبناء الأقاليم الإنجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية أو الألمانية ، وحيثما تعددت الجماعات فى صقع واحد ولو من أرومة واحدة

وقد تتجاور العناصر ألوف السنين ولا تتجاوز المنافسة بينها حدود المفاخرة اللسانية والمنافرة الكلامية ، ولكنها تتجاوز المفاخرة العنصرية إلى العداء العنصرى كلما اندفعت إلى التنازع بينها على مغنم واحد لا يتأتى

لإحداها بغير القضاء على الأخرى أو إذلالها . ويستحكم العداء بينها على الزمن إذا تداولت بينها الفحول والغارات فلا يهمها المغنم يومئذ كما يهمها الثأر والانتقام .

والعرب قد عاشت فى جزيرتها تأمن من سطوة جيرانها إلا فى أطراف الجزيرة ، حيث لا يبلغ النزاع بينهم وبين أولئك الجيران مبلغ الإبادة والاستئصال

وعاشوا ثمة وهم يحسون مكان جيرانهم ويحس جيرانهم مكانهم . وحدث بينهم أسباب المفاخرة ولم توجد بينهم أسباب العداء اللدود .

وأملى التاريخ على العرب وجه المفاخرة إملاء لا اختيار لهم فيه .

فقد كان جيرانهم الفرس والروم والأحباش أصحاب ثروة ودولة ومعاش ومتاع ، وكانوا يعيرون جيرانهم العرب شظف العيش وسوء الطعام والكساء ، وكان العرب لا يجهلون حظ هاتيك الدول من الجاه والترف وغزارة الأمواه والأزواد ، فإذا فاخروهم تركوا المفاخرة بطعام أمتع من طعامهم وكساء أنفس من كسائهم وحطام أوفر من حطامهم ، ورجعوا إلى فخرهم الذى يملكونه ولا يباهون المقالة فيه ، وهو فخر الفصاحة وعراقة الأحساب والأعراض .

فهؤلاء كلهم عند العرب أعاجم !

وهؤلاء كلهم عند العرب أخلاط لا أحساب عندها للحسب العريق .

وقد رضوا من أنفسهم بهذا الفخر واستطاعوا المقالة فيه ، ولم ينشب بينهم وبين مفاخريهم من العناصر الأخرى قتال طويل يبيدون فيه أو يبادون . فوقفوا بالمفاخرة دون اللدد فى الخصومة الدموية ، ونقلت عنهم وعن مفاخريهم أحاديثُ مستطرفات فى هذا الصدد هى أقرب إلى

مساجلات الأدباء فى موقف الدعابة منها إلى المنازعات التى تسفك فيها الدماء .

إن فخر الروم والفرس ببياض الألوان قال العرب : تلك وجوه مقشرة !

وإن فخر الروم والفرس بالحوان الحافل فخر عليهم العرب بالجود وبذل الموجود .

وساجلوا وسوجلوا فى هذا المجال فأثبتوا بعنى أنهم أصحاب فصاحة وأصحاب أعراق .

لكنهم لم يعرفوا قط عداء العنصر أو عداء الجنس كما عرف البيض والحمر فى القارة الأمريكية ، أو كما عرفه الأوربيون والأصلاء فى القارة الأسترالية ، أو كما عرفه السلافيون والتيوتون فى أوربا الشرقية ، أو كما عرفه الإسرائيليون والكنعانيون أو عرفه المغاربة والأسبان فى زمن من الأزمان .

وإذا سمعت الزراية بالعبيد على لسان العربى فآخر شىء يتبادر إلى الذهن أنهم يقصدون عداء الألوان والأجناس ، أو يعنون اللون الأسود بذلك الازدراء أو ذلك العداء .

فقد غلبت على بعض العرب أنفسهم حمرة تضرب شديداً إلى السواد ، وكان من سادتهم من وُصف بحلكة اللون وشابه الزنج بالإهاب الخشن والبشرة الفاحمة .

فإذا قالوا « العبد » فهم لا يقصدون الزنجى ولا يعنون سواد اللون بالمهانة ، ولكنهم يقصدون كل أسير لم يفك أساره وكل جلب يباع ويشرى فى الأسواق ، ومنهم صفر الوجوه وبيض الوجوه .

ويقصدون على الأخص كل إنسان مجهول النسب لا ينتمى إلى أصل

من أصولهم المشهورة . . . إذ لم يكن فى وسعهم أن يجهلوا مفخرة النسب وقد فرضتها عليهم معيشة البادية ومفاخرة الحاضرة مئات السنين .

فلا يزدرى العبد عندهم لأنه حالك اللون ولا لأنه من جنس يعادونه ويعاديهم ، ولكنه يزدرى لعلة اجتماعية لا لعلة عنصرية . وقد تزول هذه العلة من حيث لا تزول علل العناصر وعداوات الأجناس .

وجاء زمن على الدولة العربية بعد اتساعها وسطوتها كثر فيه جلب الزنوج السود من القارة الأفريقية إلى فرضات البحار المقاربة للعاصمة العربية ، وأكبرها البصرة فى ذلك الحين . فشجر بين الزنج والعرب يومئذ عداء يشبه عداء الأجناس فى عصوره الحديثة والقديمة ، ونشبت فتنة الزنج بالبصرة على مثال الفتن الجنسية التى نشهدها اليوم أو توصف لنا فى التواريخ ، ولكنها كانت غاشية عابرة لسبب عابر ، ذهب أثرها بعد ذهابها بسنوات .

أما فى غير تلك الآونة فقد كان الزنج قلة فى بوادى الجزيرة وحواضرها ، وكان الرجل العربى يولد الجارية السوداء ويتبنى وليدها إذا نجب وصلحت حاله وظهرت منه الفروسية والفصاحة ، وربما كان له عبد يحمد خصاله فيعتقه ويستلحقه ويزوجه بنته أو ذات محرم منه . ولا يمنعه أن يصنع ذلك عداء الجنس أو بغضاء اللون ، بل يمنعه عرف اجتماعى توجد له النظائر فى كل عرف يدور حول الزواج . ولو بين الأقرباء .

وعلينا أن نحترس كثيراً من نسبة كل عبد أسود يذكر فى أيام العرب إلى الزنج أو أبناء حام كما يعرفون فى علم الأجناس .

فلعله أن يكون سامياً عبر إلى أفريقية كما عبر الأثيوبيون ، ولعله أن يكون حلامياً من الساميين والحاميين . ويغلب على الظن أن بلالا —

صاحب السيرة في هذا الكتاب - كان حبشياً ولم يكن زنجياً خالصاً من السود ، لأن العرب يحسنون وصف الملامح التي تميز الأجناس والسلالات ، ولم يذكروا من أوصاف بلال العطس ولا الشعر الصوفي « المفلفل » اللذين يميزان معاً سلالة حام .

وقد كان بلال من أضلك العبيد حالا قبل الإسلام ، وكانت حال العبيد هي السوأى بين طبقات المجتمع العربي في الجاهلية . ظلماً للضعيف لا عداوة للجنس أو كراهة للسواد ، فقد كان شأن العبيد كشأن كل صعلوك وضيع النسب قليل العضد غير محسوب له حساب في شريعة الثأر والدية ، وكان العبيد أسوأ حالا من وضعاء النسب لأنهم لا ينتسبون إلى أحد معروف ، ولا يردع الظالم عن ظلمهم شرع ولا عرف ولا عقيدة . فكانوا ضحايا الظلم والتفرقة في المنازل والأقدار ، وكان خلاصهم كله في عقيدة تنكر الظلم لأنه قسوة كما تنكره لأنه ينقض شريعة المساواة .

وقد تكفل الإسلام بهذا الخلاص من جانبيه ، لأنه ينكر ظلم القسوة ، وينكر ظلم الإجحاف والمحاباة .

فحق له أن يلبي دعوته ، وأن يدعو إليه .

الرق في الإسلام

كان الإيمان بالروح أول خطوة صحيحة في طريق الحرية الإنسانية أو طريق الحكومة الديمقراطية كما نسميها اليوم .

لأن الإيمان بالروح يعلم الإنسان التبعة وأن «كل نفس بما كسبت رهينة»[1] وهذا هو أساس التكاليف والحقوق .

ولأنه يوحى إلى العقل عقيدة المساواة بين جميع الناس أمام الله وأمام شريعة الله .

ولو جاء الإيمان بالروح سابقاً للرق لامتنع الاعتراف به في الأديان التي تأمر بهذه العقيدة ، لأن بيع الإنسان بيع السلع الصماء لا يوافق الإيمان بروح يتساوى فيها السادة والعبيد ، فضلا عن الإيمان بتفضيل روح العبد الصالح على روح السيد الذي يعوزه الصلاح .

ولكن الأديان « الروحية » جاءت بعد ظهور الرق في المجتمع الإنساني بآلاف السنين ، وكان الرق في تلك الأحقاب الطوال قد امتزج بنظام الثروة ونظام المعاملات فأصبح اقتلاعه دفعة واحدة من أعسر الأمور ، ولم تكن أذواق الناس وأخلاقهم في العصور القديمة قد بلغت من اللطف والتهذب مبلغ الترفع عن تسخير الآدميين كما يسخر الحيوان أو كما تسخر الآلة الصماء . فدارت الأديان « الروحية » حول المشكلة لم تقابلها وجهاً لوجه في معظم الأحوال ، ولم تكن للعبيد أنفسهم أنفة تنحرف بهم عن هذه المنزلة التي فرضتها عليهم ضرورات الزمان ، ولو كانت لهم الأنفة لم تكن لهم القدرة على التمرد والعصيان وتبديل المصالح والآداب .

ومع هذا لم يكن للمصلحين الدينيين بد من التوفيق بين عقيدة الروح وإباحة بيع الإنسان وشرائه كما تباع الآلات .

(١) المدثر ٣٨

فكان من توفيقاتهم في هذا الباب أن العبد عبد بجسده حر بروحه أمام الله ، وأنه في هذه الدنيا عبد وفي الآخرة سيد قد يرتفع إلى مراتب القديسين .

وكتب القديس بولس إلى أهل (أفسس) رسالة أوصى فيها العبيد بالإخلاص في الولاء لساداتهم كما يخلصون في الولاء للسيد المسيح ، وكان الحواري بطرس يأمر العبيد بهذا الأمر ويلزمهم الخشية من سادتهم كأنها أدب من آداب الدين الصحيح . وجاءت الكنيسة فأقرت نظام الرق واعتمده أحبار رومه في المنابر والعظات ، وأيده توماس الأكويني كبير فلاسفة السلالة والقسيسين وتلميذ أرسطو الذي اشتهر بالعلم والتقوى في القرن الثالث عشر للمسيح . فاستند إلى أقوال رسل المسيحية كما استند إلى أقوال أرسطو في كتابه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الأرقاء في حكم الآلات التي تراد لعمل من الأعمال ولم ير في نظام الرق شيئاً يعاب ، فادام في الناس من يعجز عن كفالة نفسه فعليه أن يعيش في كفالة سواه ، وتبعه تلميذه لناسك لأن الزهد في الحياة يجعل القناعة بأبخس المنازل أمراً سائغاً لاحصاصة فيه ، بل لعله من المأثور المحمود عند من يرفضون الحياه . . . وقد واجه الرق بهذا المزاج فحسبه من الحرمان الذي لا يناقض الخطة المثلى في آداب الديانة وفضائل السلوك ، وسهل عليه أن يجد للرق مصداقاً من أمر الضرورات وتقييد بعض الحركات ببعض في نواميس الطبيعة وخصائص التكوين .

ومن أعجب العجب أن البلاد التي شاع فيها تحريم قتل الحيوان حتى ما يؤذى منه ولا يفيد — قد بلغت عقائدها القسوة القصوى في معاملة الأرقاء ، فإن أناساً من براهمة الهند كانوا يضربون الذلة على العبيد

المعروفين باسم السودرا ، لأنهم خلقوا من أسفل أعضاء الآله فلا تبرحهم وصمة الذل ما لبسوا ثوب الحياة ، فأيسر ما يعاقب به الرقيق على إغضاب سادته أن يسل لسانه أو يقتل بعد التمثيل به على مشهد من الناس

وكانت الحضارة تلطف من هذه القسوة بعض التلطيف فتجرى العادة أحياناً فى الأمم المتحضرة بالشفقة على العبيد والجوارى وتخويلهم بعض حقوق المساواة . فكان المصريون الأقدمون يميزون معاملة الإماء كما تعامل الزوجات الحرائر ، ويحكمون بالقتل على من يقتل الرقيق فى غير جريرة . ويلزمون الرجل فى موقف الحساب بعد الموت أن يبرئ ذمته من إيذاء العبيد والإساءة إليهم ، ويجعلون هذا الإبراء جوازاً لا مناص منه لى حظيرة الأرباب .

ومن مصر أخذ العبرانيون تحريم القسوة على العبيد والأجراء لأنهم كثيراً ماكانوا يؤدون فى مصر عمل الأجراء إن لم يكن عمل العبيد . فجنحت بهم الرغبة والقدوة إلى إنصاف الأرقاء والأحلاس ، وأنكروا الإرهاق كما أنكروا الضرب والإيذاء فى معاملة الأجراء .

وقال هيرودوت إن الفرس فى زمانه كانوا يمنعون عقاب العبد على الهفوة الأولى ، ولكنهم يبيحون السيد أن يقتل عبده أو يعذبه إذا أذنب مرة بعد أخرى ، وكانت شريعة الفرس أرفق بالعبد على الجملة من شرائع اليونان والرومان ، لأنها كانت ترخص له فى الراحة وتكره العدوان عليه ، وربما سرى إليهم أدب الشريعة هذا من عادة التسرى واقتناء الزوجات من الإماء . ووافق ذلك معيشة الحضارة فى المدن الكبيرة وقلة الحاجة إلى إرهاق الأرقاء لتحصيل ضرورات المعيشة ، ولعلهم قد

استفادوا أيضاً من سنن العبرانيين فى معاملة الرقيق ، لطول العشرة بين اليهود وبين شعوب النهرين .

ولم تسلم أمة قط من إقرار نظام الرق وازدراء العبيد على اختلاف عناصر الأمم وأجناسها .

فما قيل عن فضل أمم الشمال الأوربية على أمم الجنوب كافة فى هذه المسألة خطأ ظاهر فى البحث عن حقائق الأسباب ، لأن أمم الشمال لم تخل من نظام الرق حبّا فى الأخلاق أو تفردا بالصفات الإنسانية التى تُدَّعى للشماليين فى الزمن الأخير ، ولكنها خلت من نظام الرق لأن اقتناء الأرقاء فى تلك البلاد الباردة يكلفها أكثر مما يحط عنها ، فهى فضيلة الضرورات لا فضيلة الأخلاق ، وهى مزية البقاع لا مزية عناصر الشمال .

ومازال الرقيق محروماً من المساواة الإنسانية إلى هذا اليوم فى الأمم الأوربية والأمريكية . وكانت القوانين إلى القرن الثامن عشر تجيز قتل العبيد فى المستعمرات إذا هربوا من الأسر أو أغلظوا لمواليهم فى الكلام ، ولم يكن على السيد الذى يقتل مولاه إرهاقاً أو تعذيباً عقابٌ منصوص عليه .

تلك كانت حالة الرقيق جملة فى القرون الأولى وفى القرون الحديثة .

وقبل ظهور الأديان « الروحية » وبعد ظهور تلك الأديان .

ومن الأسباب التى تذكر لتحسين أحوال الأرقاء ومنع الاتجار بهم فى العصر الحديث أن اقتناء العبيد كان يسر لبعض البلاد أن تنافس البلاد التى تستخدم العمال الأحرار فى الصناعة وتبذل لهم أجراً لا يطمع العبيد السود فى مثله ، وكان اقتناء العبيد يسير أولئك العمال الأحرار فى الوقت

الذى سرفوا فيه حقوقهم ونهضوا للمطالبة بها ، وساعدهم على المطالبة بها أصحاب الأموال الذين لا يستفيدون من تسخير الأرقاء .

ومهما يكن الرأى فى حقيقة هذه الأسباب فهى مما يدخل فى التقدير عند بيان فضل الإسلام وسبقه للحضارة الحديثة إلى أرفع الآدب وأكرمها فى مسألة الرق ومعاملة الأرقاء .

فلم تكن معاملة الأرقاء على الوجه الذى أمر به الإسلام مصلحة اقتصادية على فرض من هذه الفروض ، بل ربما كان من المصلحة إبقاء الرق على نظامه الأول ليفرغ الأرقاء لأعمال المعيشة والسخرة ويفرغ الأحرار لأعمال الجهاد والرئاسة .

كذلك لا يقال إن الإسلام تهيّب النظام القائم فى المجتمعات القديمة كما تهيبتها الأديان الروحية فدارت حول المشكلة ولم تقابلها وجهاً لوجه فى معظم الأحوال ، ولم تأخذ بأيدى العبيد إلا بما كانت تفرضه عليهم من الطاعة وترجيه إليهم من العزاء المنظور فى الدار الآخرة .

فلا يقال إن الإسلام قد منع رق المسلم وقصر الرق على الأسرى وأوجب لهم حسن المعاملة لأنه كان ديناً يؤمن بالروح ، ولا توافق بين الإيمان بالروح وبين بيع الآدميين كما يباع الحيوان . . . فإن الواقع أن أدياناً روحية كثيرة قد وفقت بين الأمرين على نحو من التوفيق .

ولا يقال إن الإسلام قد جاء بآداب الرق بالرفيق بعد ذهاب الحجة إلى تسخير الأرقاء وتبدّل الأحوال الاقتصادية فى مجتمعات المشرق والمغرب . . . فإن الواقع أن هذه الحاجة ظلت قائمة فى البلاد الشرقية والغربية إلى زمن يذكره الأحياء ولا تزال قائمة حتى اليوم فى بعض الأنحاء

وإنما هو إذن فضل خالص من علل المادة ودواعى الثروة الاجتماعية وإنما هو نصر صريح فى عالم الروح يحسب للدين الإسلامى وحده بين سائر الأديان .

* * *

كان فى وسع الدعوة الإسلامية أن تمر بنظام الرق فى العالم العربى وفى العالم بأسره ثم تتركه حيث كان فلا يحسب عليها ذلك — فى حينها — إغضاء معيبا تسأل عنه ، لأن مسألة الرق لم تبلغ يومئذ أن تكون من المسائل الناطقة التى يؤول السكوت عنها بالإغضاء أو المداراة

ومن المحقق أن الدعوة الإسلامية لم تكن تخسر شيئاً لو أنها أهملت مسألة الرق فى أول ظهورها ؛ لأن المسلمين على غيض ذلك كانوا يتجشمون خسارة لا يطيقونها فى إعتاق العبيد والإماء كلما ساءت حالهم عند سادتهم بدخولهم فى دين الإسلام . وكان أبو قحافة يمثل الرأى الحصيف وهو يأخذ على ابنه الصدّيق بذل المال الكثير فى سبيل رهط من الضعاف المهازيل يثقلون كاهله ولا يغنون عنه أقل غناء .

فلم يكن ثمة من باعث إلى التطرق إنصاف الأرقاء وهدم نظام الرق القديم غير باعث الفضيلة المثالية التى تعنى بطلب الكمال ولا تحفل بالمصلحة المادية أقل احتفال .

وقد تبدل نظام الرق على يد الإسلام فى أوسع نطاق للتبديل أو على أعمق أساس يبنى عليه كل تبديل فى أمثال هذه الأنظمة الاجتماعية ، لأنه عمد إلى أساس التفرقة بين الأجناس والأقوام فمحاه أو عفى عليه ، وعلم الناس أن المؤمنين إخوة وأنه لا فضل لمسلم على مسلم بغير التقوى ، وأنهى إليهم فى أحاديث النبى القدسية أن « الجنة لمن أطاعنى ولو كان عبداً حبشياً والنار لمن عصانى ولو كان شريفاً قرشياً » أو كما قال

وحصر الرق مع هذا في سبب واحد من أسباب الاسترقاق ، وهو الأسرى ميادين الحروب . فلا يملك الرجل أو المرأة بالنخاسة والاختطاف ، لا يعد من العبيد إلا من وقع أسيراً في ميدان القتال إلى أن يفدى نفسه أو يفديه من بعده .

وقد مضت مئات السنين بعد ظهور الدعوة الإسلامية فبطل نظام الاسترقاق أو بطلت الحاجة إليه ، ولا يزال الأسر مشروعاً والفداء واجباً ولو بتبادل الأسرى أو بشرط من الشروط التي تقوم مقام الفداء . ولا يقع في العقل نظام غير هذا النظام ما بقيت الحروب وبقي الأسر والاستئسار مقبولين في شرعة المتحاربين .

ولم تنته عناية الإسلام بمسألة الرق بتضييق نطاقه وحصره في هذا السبب الوحيد من أسباب الاسترقاق ، بل أمر المسلمين بقبول الفداء أو المن وهو الإعتاق بغير فداء - « فإما منًّا بعدُ وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها »[1].

وأوجب على المسلم أن يقبل من الأسير تنجيم فديته حتى يستوفيها على سنة الرفق والسماحة : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم . . . »[2].

وقد جعل الإعتاق حسنة تكفر عن كثير من السيئات ، وفرضها على الذين يخالفون بعض أحكام الدين كما فرض الصدقات وإطعام المساكين ، وجعل وصية الرفق بهم مقرونة بوصية الرفق بالآباء والأقربين : « . . . وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً »[3].

(١) سورة محمد ٤ (٢) النور ٣٣ (٣) النساء ٣٦

وكانت وصية النبي للمسلمين قبيل وفاته « الصلاة وما ملكت أيمانكم » وتكررت منه عليه السلام أحاديثه في هذا المعنى حتى قال في بعض تلك الأحاديث « لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم »

ويجاوز الإشفاق على الأرقاء من سوء المعاملة إلى الإشفاق عليهم من الكلمة الجارحة فكان عليه السلام يقول : « لا يقل أحدكم عبدي وأمتي . وليقل فتاي وفتاتي وغلامي » .

أما ضرب الرقيق بغير تأديب يحتمل فهو ذنب كفارته العتق - أو كما قال عليه السلام : « من لطم مملوكه فكفارته عتقه » . فإذا قتله فهو يقتل به في قول أشهر الفقهاء .

وقد فضل الإسلام الزواج بالأمة المؤمنة على الزواج بالحرة المشركة . وأوجب عتق الأمة متى ولدت للرجل واعترف بأبنائها .

وقد أعتق النبي عليه السلام مملوكه زيداً وزوجه بعقيلة حرة من عقيلات بيته ، وتبناه وأقام ابنه أسامة من بعده والياً على جيش الشام وهو دون العشرين ، وفي الجيش نخبة من أجلاء الصحابة منهم عمر بن الخطاب .

وكانت معاملة النبي للأرقاء في ملك يده وفي ملك غيره تفوق سماحة هذه الوصايا على فرط ما فيها من السماحة بالقياس إلى آداب ذلك العصر ، وإلى آداب جميع العصور ، فكان يؤاكلهم ويلبي دعوتهم إلى الطعام ويقول للمسلمين : « هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وأكرم ما قال فى هذا الباب — وكله كرم — «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»

* * *

هذه الوصايا والمعاملات كانت كلها من فيض الآداب العلوية الرفيعة ولم يكن شيء منها قط من إملاء الضرورات الاجتماعية أو المصالح الاقتصادية . بل هي ولاشك قد تقررت على الرغم من ضرورات الاجتماع ومصالح الاقتصاد التي كانت غالبة في تلك الآونة على الجزيرة العربية وعلى غيرها من أرجاء العالم المعمور .

وهي لم تتقرر — بالبداهة — دفعة واحدة في مستهل الدعوة الإسلامية ولا تقررت كلها أو بعضها قبل إسلام بلال وزملائه من الموالى والإماء . فقد تتابعت الأحكام الإسلامية في معاملة الرقيق على أثر قيام الحروب بين المسلمين والمشركين ، وبعد ظهور حالة الأسرى والمستأسرين في معارك الفريقين .

فمن الخطأ أن يقال إن أحكام الرقيق هي التي جلبت إلى الإسلام من دخل فيه من الموالى والإماء ، أو إنهم سيقوا إلى الدخول فيه طلباً لراحة الجسد وهرباً من مظالم السادة ومتاعب التسخير .

إن يكن هناك أثر للمعاملة الحسنة في إقبال بلال وزملائه على الإسلام فهو على التحقيق أثر المثال الرفيع الذي تمثلوه في معاملة النبي عليه السلام لصحبه ومواليه ولكل ضعيف منتم . إليه ولم يكن سراً مجهولاً بينهم أن النبي عليه السلام أحسن إلى مولاه زيد بن حارثة فأنساه أباه وذويه ، وجاءه هؤلاء يفتدونه ويعرضون عليه الحرية والعودة إلى

أحضان أهله فآثر صحبة النبي على نعمة الحرية بين معشره الأولين وفى ظلال وطنه الذى فارقه مكرهاً منذ سنين .

بهذا المثال الرفيع قد كان له ولا ريب أثره البالغ في تحبيب الإسلام ونبي الإسلام إلى الأرقاء وغير الأرقاء .

ولكنْ طلب الإسلام عند أولئك الأرقاء لم يكن طلباً لراحة الجسد ولا مفاضلة بين سيد وسيد أو معيشة ومعيشة .

فإننا لا نعرف في تواريخ العقائد الدينية أن أحداً يقبل على الدين مساومة على الراحة ورفاهة العيش . ولم يكن طلاب الراحة ورفاهة العيش قط أعوان عقيدة ناشئة في عهدها الأول وهي مقدمة على المعامرة والجهاد تتطلب الضحايا وتفرض على الأتباع ألوان الفداء .

وفى حالة بلال وزملائه خاصة لم يكن الإسلام راحة لهم ولا انتقالا من جانب الخطر إلى جانب السلامة والأمان . بل كان على نقيض ذلك انتقالا من جانب السلامة والأمان إلى جانب الخطر الذى لا يدفعه عنهم دافع . لأن العربى يحميه من الضيم آله وعشيرته ولا يبلغ الأمر مبلغ الخطر على حياته وماله إلا في قتال صريح بعد يأس من الوفاق . ولا حاجة إلى قتال صريح أو غير صريح لا هدار دم العبد المملوك المرهون بمشيئة مولاه ، وأهون من ذلك عند مولاه تعذيبه وإعناته وحرمانه الراحة وضرورات الحياة .

كذلك لم يكن طلب الإسلام عند هؤلاء الأرقاء طلباً للنقلة من رق ثقيل إلى رق خفيف ، أو من سيد قاس إلى سيد رحيم . لأن الإسلام في مبدأ أمره لم يكن ليخرجهم من ربقة الأسر عند سادتهم الأقوياء ، ولم

يكن العتق جزاء موعوداً لمن يغضب سيده المشرك ويرضى النبي عليه السلام بالدخول في دينه . وإنما جاء العتق مصادفة واتفاقاً بعد تشديد العذاب على أولئك الضعفاء المساكين ، وقد كان العذاب يقيناً لاشك فيه ، ولم تكن النجاة الا وعداً مأمولاً لم تبد تباشيره للعيان .

فمن الخطأ كما أسلفنا أن يعلل إيمان العبيد والإماء بأحكام الإسلام في معاملة الأرقاء ، أو بالطمع في الراحة والمساواة على حسن المعاملة ، فإنما عرفت تلك الأحكام بعد ابتداء الدعوة الإسلامية بزمن طويل ، وإنما كان العناء والخطر أول ما يصيب العبد الذي يصبأ عن دين مولاه ، وكانت الراحة آخر ما يرجوه من أمل بعيد ، إن سلمت له الحياة .

ومازالت العقائد أكرم على ضمير الإنسان من هذه المساومات التي تلازم الأسواق وتعرض في صفقات البيع والشراء ، ومازال قلق النفس هو الباعث لها وطمأنينة النفس هي البغية منها ، وتهون في سبيلها بعد ذلك مطالب العيش وراحة الأجساد .

وآية ذلك أنه لم يؤمن إنسان قط لغنيمة تخصه ولا تعم سواه .

إنه ليساوم في سوق التجارة على الغنيمة التي تخصه دون غيره ، ولكنه إذا آمن بعقيدة من العقائد التي تتناول الحياة والموت فلابد من غاية تعمه وتعم غيره على السواء ، ولابد من الأمل العام الذي يتخطى مصالح الفرد ومساومات الآحاد .

وبلال حين آمن بالإسلام قد آمن حقاً بالدين الذي ينصف العبيد ، ولكنه قد آمن به على السنة التي ترضى الكرامة الإنسانية لا على سنة المساومة والمصافقة ، أوهو قد آمن به إنساناً كما آمن به السادة الأحرار القادرون على شراء العبيد والإماء .

وأقل ما يقال في تعليل إسلامه إنه إعجاب نفس طيبة بنفس عظيمة ، وانه ايثار للخير الكبير على الخير الصغير ، وانه استقامة طبع تهتدى إلى الصراط المستقيم . وانه شوق إلى الحق الذي يريح النفوس وليس يشوق إلى الرفاهة التي تريح الأجساد .

ومما لا شك فيه أن إرضاء الكرامة بالمساواة بين جميع المسلمين كان أحب إلى أولئك العبيد والإماء من كل راحة يرجونها بعد الدخول في الدين الجديد ، أيًّا ما كانت الثقة بتحقق ذلك الرجاء . في أجل قريب أو بعيد

وقد عبرت القرون على وصايا الاسلام بالرقيق ، وعمل بها من المسلمين من عمل وخالفها من خالف واحتال عليها من احتال ، على عهد الناس بجميع الأوامر أو النواهي التي تشرعها العقائد والأديان .

ولكنها ، سواء روعيت أو خولفت قد كانت كسباً عملياً له أثر من النفع الواقع في تاريخ بني الإنسان ، وقد بقي لها هذا الأثر إلى أن بطل الأسر وبطل الرق بشتى ذرائعه ودواعيه ، وارتفعت للحرية الفردية والحرية القومية صيحة لم ترتفع لها قط في زمن من الأزمان .

فبعد وصايا الإسلام بألف ومائتي عام ، وفي العصر الذي راحت فيه أوربا تنكر الرق وراح فيه اليونان يطلبون الاستقلال نزل بمصر فوج من الأسرى اليونان يزيدون على خمسة آلاف وخمسمائة ، ووزعهم الولاة على بيوت السراة وذوى الثراء في القاهرة والإسكندرية ، ثم عقد الصلح وقضت شروطه برد الأسرى إلى بلادهم وإعتاق من بيع منهم بمال الحكومة المصرية لا بمال الأسير أو بمال ذويه ، فآثروا البقاء جميعاً في

البيوت التي نزلوا بها نزول العبيد ، ولم يقبل منهم العتق غير أربعمائة أو دون ذلك ، كما جاء في بيان المندوب الإنجليزي الذي نيط به تنفيذ تلك الشروط .

ومهما يقل القائلون في تعليل ذلك الإيثار ، فالأمر الذي لا يتحكم في هذا المقام ولا ينسى أن أولئك الجند الأوربيين الذين أسروا وهم يطلبون قضية الاستقلال ، ما كانوا ليحمدوا البقاء عند سادتهم المسلمين لو كانت وصايا الإسلام بالأرقاء قد ذهبت ذهاب الكلام في الهواء .

فالعقائد الكبرى قد تتكلم بلسان العصائل المثالية في نشأتها الأولى ، وقد ينشدها المؤمنون بها حباً للمثال الأعلى وطموحاً إلى الكمال ، ولكنها لا تلبث بعد ذلك أن توزن بالميزان وتشخص للعيان .

نشـــأة بـــلال

اتفقت الأقوال على أن بلالاً كان من أبناء الحبشة المولدين ، وجاء في وصفه أنه رضي الله عنه كان « آدم شديد الأدمة نحيفاً طوالاً أجنأ — أي فيه انحناء — كثير الشعر خفيف العارضين »

وهي أوصاف تعهد في سلالة المولدين من السود والساميين ، وقد كانوا كثيرين بين الحبشة واليمن من قديم الزمن . فليست أوصافه المتفق عليها أوصاف الزنج ولا أوصاف أبناء سام ، وسواده وكثرة شعر رأسه مع خلوص من فطس الأنف وتقبض الشعر تدل على أنه مولد من السلالتين . وقد زعم بعضهم أنه كان ينطق السين شيناً على عادة السود ، ونفى الثقات هذا الزعم وأكد نفيهم أنه كان يقيم الأذان وفيه السين والصاد .

ويختلف في مولده فيقال إنه ولد في مكة ويقال إنه ولد في السراة ، وربما رجح القول الأخير لأن السراة أقرب إلى اليمن والحبشة ، ولأن بلالاً رضي الله عنه رجع إليها حين فكر في الرواح .

وأرجح الأقوال في سنة مولده أنه ولد قبل الهجرة بنحو ثلاث وأربعين سنة ، ثم تختلف الأقوال حتى يبلغ التفاوت بينها زهاء عشر سنين

أبوه وأمه معروفان ؛ أبوه يدعى رباحاً وأمه تدعى حمامة ، وكان يثير بابن السوداء إذا غضب منه غاضب ، ولعل أمه كانت من إماء السراة أو إماء مكة ، إذا صح أنه لم يولد بالسراة .

ويحسب بعض الإفرنج الذين كتبوا عنه أنه تلقى من أمه كلمات التوحيد كما كان يفهمه المتدينون والمتدينات بالمسيحية من أبناء الحبشة . وأنه من ثم أسرع إلى تلبية الدعوة المحمدية حين جهر النبي عليه السلام

برسالة التوحيد ، وهو حسبان جائز ولكنه بعيد ، لأن الأحباش في ذلك الزمن إنما كانوا يفهمون المسيحية على نحو أقرب إلى الوثنية ، ولا يرحبون برسالة التوحيد المحمدية ذلك الترحيب .

ويذكر لبلال أخ يسمى خالد ويكنى بأبي رويحة ، والأغلب في الروايات المختلفة أنه كان أخاه في الإسلام على سنة المؤاخاة بين الصحابة التي سنها عليه السلام . . وقيل إن له أختاً تسمى غفرة هي مولاة عمر بن عبد الله مولى غفرة المحدث المصري ولا خبر عنها غير ذلك فيما روى من أخباره .

وكانت نشأة بلال بمكة في بني جمح من بطون قريش المشهورة .

وفي بني جمح هؤلاء نشأ أبو محذورة أحد الثلاثة المختارين من مؤذني النبي ﷺ ، وهم بلال وأبو محذورة وعمرو بن أم كلثوم . . ولا يدرى أمن محض المصادفة أن كانت نشأة اثنين من الثلاثة في بني جمح أم كان لهؤلاء القوم بعض عناية بالصوت والغناء ، وإنما المعروف عن القوم أنهم كانوا أصحاب الأزلام والأيسار في الجاهلية وأنهم كانوا من حزب عبد الدار حين شجر الخلف بينه وبين عبد مناف ، فكان بينهم وبين بني عبد مناف خلاف قديم .

وإذا كان لنشأة بلال بين هؤلاء القوم أثر مذكور في بغضه لعبادة الجاهلية وإقباله على الإسلام فذلك هو اطلاعه بين القوم على أسرار الأزلام والأيسار وما يلزمها أحياناً من الغش والتلبيس ، وأن القوم فيهم جفاة عن الرحمة والنزعة الربحية باعدت بينهم وبين خلائق عبد مناف — جد النبي عليه السلام — منذ القطيعة الأولى بين الأحزاب القرشية ، وخليق بأمثال هؤلاء ألا يألفهم الضعفاء

ولم يطلع على التحقيق من كانوا سادة بلال وأبيه من بنى جمح مولاه . فقيل إنه كان عند عقيلة من عقائلهم . وقيل إنه كان عند أيتام لأبى جهل ، وقيل إنه كان عند أمية بن خلف وبعض ولده ، واتفقت الأقوال على أن الصديق رضى الله عنه هو الذى استنقذه من أيديهم بعد ما عاينه من تعذيبهم إياه لدخوله فى الإسلام . فاشتراه بخمس أواق من الذهب وقيل بسبع أواق وقيل بتسع أواق . وزعموا أن سيده أراد أن ينغص الصفقة على الصديق بعد شرائه فقال له : لو أبيت إلا أوقية لبعناك ! فقال له الصديق : لو أبيتم إلا مائة لاشتريته . . ! ! ويزعم بعض الرواة أن الصديق استبدله بغلام له جلد من عبيده ؛ وهى رواية يشك فيها كثيراً . لأن الصديق لم يكن ليسلم المشركين رجلا من أتباعه ليستنقذ به رجلا غيره ، وأدنى من ذلك وأشبه بخلائق الصديق رضى الله عنه أنه اشتراه بأمر النبى عليه السلام ، وأنه عليه السلام عرض عليه الشركة فيه ليحمل عنه عبء بعقته ونفقة المستضعفين من أمثاله ، فقال له . لقد أعتقته يارسول الله . وعمل بعد ذلك خازناً له ثم خازناً للنبى ومؤذناً للمسلمين بعد إقامة الأذان .

واستراح بلال بعد عتقه من إيذاء السادة للعبيد ولكنه لم يسترح ولا استراح غيره من إيذاء الأحرار للأحرار ولا سيما المستضعفين الذين لا تحميهم العصبية ولا الخوف من الثأر . فقد كان المشركون يتعقبون المسلمين بكل ما استطاعوا من عنت ومساءة ، واشتدوا فى ذلك حتى هموا بقتل النبى عليه السلام وجمعوا كلمة القبائل على هذه النية ليفرقوا دمه الزكى بينها فلا تقوى هاشم وحدها على محاربتها أو تصمد لعداوتها . فأشفق النبى الكريم على صحبه وأذن لهم فى الهجرة قبله ، وكان بلال ممن هاجر إلى

المدينة على إيثار منه للبقاء فى مكة . فلما وصل النبى عليه السلام وصاحبه الصديق إلى المدينة كانت ، أوبأ أرض الله من الحمى ، ولكنها أرحم بهم من جيرة المشركين فى مكة . ونزل الصديق وعامر بن فهيرة وبلال فى بيت واحد فأصيبوا جميعاً بالحمى — ولعلها الملاريا كما رجحنا فى غير هذا الكتاب — فكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته يترنم بصوته الجهورى قائلا :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة بفخ وحولى إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لى شامة وطفيل

وهى مواضع ومنابت بمكة وجوارها تشوّقها بلال فى العلة لما ابتعد عنها ، وليس أعجب فى الوفاء لموطن الصبا من هذا الوفاء ، لأن بلالاً قد لقى عند تلك المواطن والمنابت قسوة فى جاهليته وتعذيباً فى إسلامه وخطراً على حياته ، ولكنه عاش فيها مع الصبا الأول وعاش فيها مع الإيمان الأول ، فهى حبيبة إليه أثيرة لديه ، وإن لقى الحفاوة والسلامة فى الهجرة منها إلى غيرها .

وقد لزم بلال النبى والصديق بالمدينة ومكة وسائر المغازى والأسفار بعد ذلك . وكان لمسجد المدينة الذى اشترك النبى عليه السلام فى بنائه حظ الأذان الأول فكان لبلال حظ السبق بهذا الأذان . ولم يزل له حظ التقدم على سائر المؤذنين فى حضرة النبى حتى قُبض عليه السلام ، وميّز بالتقدم عليهم لتقدمه فى الإسلام ولجهارة صوته وحسن أدائه ، وإن كان تقدمه فى الإسلام هو أوضح المزيتين التى استحق بها التفضيل والتكريم .

كان إذا فرغ من الأذان وأراد أن يعلم النبي عليه السلام أنه قد أذن وقف على الباب وقال : حي على الصلاة ! حي على الفلاح ! الصلاة يارسول الله . فإذا خرج رسول الله ورآه بلال ابتدأ في الإقامة .

وقيل في خصائص أذانه إنه كان يؤذن حين يدحض الشمس ويؤخر الإقامة قليلا . أو ربما أخرها قليلا ، ولكن لا يخرج في الأذان عن الوقت . وربما ترنم ببعض الشعر وهو صاعد للأذان رثاءً لحاله وطلبا للتوبة والرحمة من الله . ومن ذلك أنه سُمع وهو يقول :

ما لبلال ثكلته أمه وابتل من نضح دم جبينه

وكان من عمل بلال في صحبة النبي عليه السلام قبل بناء المصلى أنه كان يحمل العنزة بين يديه ويركزها حيث تقام الصلاة ، وكانت هذه العَنَزة إحدى عنزات ثلاث أهداها نجاشي الحبشة إلى النبي عليه السلام ، فأمسك واحدة لنفسه وأعطى كلا من علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب واحدة ، واختص بلالا بحمل العنزة بين يديه أيام حياته ، فكان يحملها في العيدين وفي أيام الاستسقاء ويركزها حيث تقام الصلاة ، وقيل إنه كان يمشي بها بين يدي الصديق في خلافته ثم جعل سعد القرظ يمشي بها بين يدي عمر وعثمان بوصاة من بلال ، وهي العنزة التي احتفظ بها الولاة يُمشى بها بين أيديهم بعد عهد الخلفاء .

وقد آخى النبي في المدينة بين المهاجرين والأنصار ، فآخى بين بلال وخالد أبي رويحة الخثعمي ، وقيل بل بينه وبين أبي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، أو بين أبي عبيده بن الجراح ، وهو على ما يظهر لبس في الأسماء ، والأول هو الأرجح لبقاء الصلة بين بلال وأبي رويحة إلى أن فرقت بينهما الوفاة .

ويبدو من أحاديث النبي عليه السلام لبلال أنه كان يصطفيه لأنه أهل لاصطفاء التربية والتعهد بالنصيحة والتعليم ، فكان يقول له : يابلال ! أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله ، وكان يقول له : عش فقيراً يابلال ومت مع الفقراء ، وربما عهد إليه في تعريق مايصل من المال عنده وقال له : انظر حتى تريحني منه . فيرى بلال القدوة في سيده ونبيه فإذا هو من خيرة المقتدين ، ويظل على هذه القدوة حتى فارق الحياة .

وقد أرى النبي عليه السلام أنه سمع دف نعلي بلال بين يديه في الجنة ، فسأله بعد الصلاة : يابلال ! حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الإسلام منفعة ، فإني سمعت ليلة دف نعليك بين يدي في الجنة . . . فلم يذكر بلال زهده واجتهاده ولاصبره على العذاب ولا أمانته وتسليمه . بل قال : ما عملت عملا في الإسلام أرجى عندي منفعة من أني لاأتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ماكتب الله لي أن أصلي .

فكان اصطفاء النبي هذا الصديق المؤمن الأمين اصطفاء المربي الكبير للرجل تثمر فيه التربية والقدوة الحسنة كما يثمر فيه الصنيع الجميل ، ويُحب المطلف بحضره كما يحب لخلوص طويته وفضائل نفسه ، وقد كان كالحارس الملازم لشخص النبي عليه السلام في طويل صحبته بين الحرب والسلم والإقامة والسفر ، ولكنه عليه السلام لم يكن يتخذه حارساً يحميه كما يحمي الحراس الأمراء والسلاطين ، وإنما كان يستصحبه في إقامته وسفره استصحاب الحراس لأنه كان يستريح إلى رؤيته والشعور بصدق مودته ووفائه ، وكانت مودة بلال لولاه وهاديه تبدو منه حيث يريد

وحيث لا يريد ، فإذا أشتد الهجير في رحلة من الرحلات أسرع إلى تظليله بثياب الوشى والنبى لا يسأله ذلك ، وإذا تهيأوا للقتال ضرب له قبة من أدم يرب الموقعة منها وجعل يتردد بينها وبين الميدان ليطمئن عليه ويتلقى الأمر منه ، فلم يعرفها موقف ضنك ولا موقف خطر ، ولم ينقص يوماً إلا جمعتها فيه الصلوات الخمس ومجالس العظة والحديث ، مالم يكن في غيبة قصيرة لشأن من شئون الدين الذى لم يكن له شأن سواه .

ولما فتحت مكة أمره النبى عليه السلام أن يقيم الأذان على ظهر الكعبة فأقامه والمشركون وجوم يغبطون آباءهم لأنهم لم يشهدوا ذلك اليوم ولم يسمعوا ما سمعوه فيه ، ودخل النبى الكعبة مكان في صحبته ثلاثة هم عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد ابن النبى بالتبنى ، وبلال .

ومازال يصحب النبى عاهداً حتى قبض عليه السلام ، فأقام الأذان بعد وفاته أياماً على أرجح الأقوال ثم أبى أن يؤذن وأصر على الإباء ، لأنه كان إذا قال في الأذان « أشهد أن محمداً رسول الله » بكى وبكى معه سامعوه ، فلم يطب له المقام حيث كان يصحب النبى ويراه ثم هو بعد لا يصحبه ولا يراه ، وآثر الاغتراب على فرط حبه لمكة والمدينة وآثر الجهد على فرط حاجته إلى الراحة في عشرة الستين ، واتفقت أرجح الأقوال على أنه استعفى الصديق من الأذان معه واستأذنه في الخروج إلى الشام مع المجاهدين . فأذن له بعد إلحاح منه . واشترك في معارك لا نعمها على التفصيل ، ثم سكن إلى ضيعة صغيرة بجوار دمشق يزرعها ويعيش من غلتها ، ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك إلا يوم أذن لخليفة

الفاروق بدعوة من كبار الصحابة والتابعين ، ويوم تصدى لمناسبة خالد في مجلس الحكم بين يدى أبى عبيدة .

وأدركته الوفاة في نحو الستين - لأنه كان ترب الصديق على أرجح الأقوال - وقيل إنه مات في طاعون عمواس ، وقيل سنة عشرين للهجرة أو إحدى وعشرين . واستعذب الموت لأنه سيجمع بينه وبين النبى وصحبه كما كان يقول في ساعات الاحتضار ، فكانت زوجته تعول إلى جانبه وتصيح صيحة الوله ! واحزناه . فيجيبها في كل مرة بل وافرحاه . غداً نلقى الأحبة : محمداً وصحبه .

وكانت وفاته بدمشق فدفن عند الباب الصغير ، وقبره رضى الله عنه معروف يزار .

وليس أدل على قدر بلال عند الصحابة والتابعين من ذلك الوجد الذى اختلجت به حناياهم وهو يؤذن لهم في دمشق بعد انقطاعه عن الأذان تلك السنين الطوال . بكى عمر وبكى معه الشيوخ الأجلاء حتى اخضلت اللحى البيض واضطربت الأنفاس التى لا تضطرب في مقام الروع . ولو بدا لهم أنهم يستمعون إلى صوت آدمى يطلق من حنجرة من اللحم والدم لما اختلجوا تلك الخلجة ولا تولاهم ما تولاهم يومئذ من الوجد والرهبة ، ولكنهم أنصتوا لوحى الغيب حين أصغوا إليه ، وقام في أخلدتهم أنه صوت جدير بمحضر النبى عليه السلام يسمعه معهم كما سمعوه معه آونة من الزمان فهم إذن في عليين أو قريب من عليين ، وهم إذن على مسمع ومشهد من ذات الله جل وعلا وذات النبى عليه السلام في جواره ، وهم إذن أرواح علوية يضيق اللحم والدم بعيشها الإلهى

فترجف من الوجد وتنكسر الأجساد بالبكاء مغلوبة فى عالم الأرواح وآفاق السماء .

رحم الله بلالا إنه كان داعى السماء ليرفع أبناء الأرض بدعوته . وقد رفعهم فى ذلك اليوم إلى الأفق الأعلى ، إلى الحضرة التى ترتفع فيها الأجساد لأنها غريبة فى ذلك الجوار .

* * *

وحق للمسلمين فى ذلك العهد أن يقرنوا بين محضر النبى وصوت بلال حيث كان . فمن سيرة بلال الوجيزة نعلم أنه كان يأوى إلى كفالة النبى فى حياته البيتية كما كان يأوى إليه فى حياته الدينية . وأن أحداً من الصحابة لم يكن يذكرهم بالنبى عليه السلام كما كان يذكرهم به مؤذنه وصاحبه ووليه طوال حياته حيث يرونه أو حيث يستمعون إليه ، وقد شغل النبى بمعيشته فى بيته كما شغل بعتقه ورزقه وتقويم دينه ، فى روايات متفقة أنه تزوج بوصية منه عليه السلام ، وفى إحدى هذه الروايات « إن بنى أبى البكير جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : زوج أختنا فلانا . فقال لهم : أين أنتم عن بلال ؟ ثم جاءوا مرة أخرى فقالوا يارسول الله أنكح أختنا فلانا فقال لهم : أين أنتم عن بلال ؟ ثم جاءوا الثالثة فقال لهم : أين أنتم عن بلال ؟ أين أنتم عن رجل من أهل الجنة . فأنكحوه » .

والظاهر أنه تزوج غير مرة وأنه مات بغير عقب ، فقد جاء فى رواية قتادة أنه تزوج أعرابية من بنى زهرة ، وجاء فى رواية أخرى أن له زوجة تدعى هنداً الخولانية ، وهى من خولان اليمن لا من خولان الشام لأنها كانت معه قبل هجرته إلى الشام .

ذكره ابن إسحاق فيمن حضر بدراً فقال : وبلال مولى أبى بكر . مولّد من مولدى بنى جمح اشتراه أبو بكر من أمية بن خلف وهو بلال بن رباح لا عقب له .

نعم ولكنه أعقب الميراث الذى يتصل بالأذان فى كل مكان . . . فلا ينساه من يسمع الأذان ويرجع به إلى أول من نادى به قبل أجيال وأجيال .

إسلام بلال

كل إيمان فهو شئ يتجاوز الفرد الواحد ولا ينحصر فى مصلحته العاجلة أو الآجلة .

فليس بإيمان ذلك الذى يخص فرداً واحداً ولا يتجاوزه إلى غيره فى زمنه أو بعد زمنه ، وليس بإيمان ذلك الذى يدور على المصلحة الفردية وإن تعدد فيه الأفراد ، لأن الإنسان قد يضحى بالمصلحة فى سبيل الإيمان ولا يفعل ذلك وهو يحسب حساب المصالح ولا يتجاوزها .

وقد يضحى الإنسان أحياناً بالإيمان فى سبيل المصلحة العاجلة أو الآجلة . ولكن ذلك لا ينفى أن الإيمان شئ أكبر من المصلحة عاجلها وآجلها ، وإنما يدل فى هذه الحالة على أن ذلك الانسان يستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ، وأنه ضعيف اليقين ضعيف الاستعداد للإيمان .

فالإيمان لا يقوم على أساس المصلحة العاجلة أو الآجلة .

ويكفى أن يضحى الناس بمصالحهم فى سبيل إيمانهم – ولو فى بعض الأحيان – لتقرير هذه الحقيقة من وراء الجدل والخلاف .

لأننا نفهم أن يضحى الرجل إيمانه فى سبيل مصلحته فنقول إن المصلحة عزيزة عليه وإن الإيمان ضعيف فى نفسه .

ولكنا لا نفهم أن يضحى الرجل مصلحته فى سبيل إيمانه إلا على وجه واحد ، وهو أن الإيمان والمصلحة معدنان مختلفان ، وأن المصلحة عزت أو هانت هى شئ غير الإيمان .

ولا يقال إن مصلحة الآخرة تدخل فى حساب الرجل فيضحى من أجلها مصالحه الدنيوية ، فإن تصديقه بمصلحة الآخرة هو نفسه إيمان بالغيب ، وهو سابق لحصول المصلحة على كل حال .

ومع هذا وجد فى زماننا هذا أناس – كأتباع كارل ماركس – يؤمنون

بالمادة وينكرون كل شئ غير هذه الدنيا المحسوسة ، ويقولون إن الأديان والمذاهب والآداب وكل ما يحيك بضمير الإنسان إن هى إلا صورة من حياته المادية التى لا بعث بعدها ولا محل للروح فيها ، ومنهم مع ذلك من يدخل السجن ويتعرض للبلى ويحارب بالحياة ويفقدها فى سبيل إيمانه بمعتقده وإنكاره لمعتقد الآخرين . . وليس بالمعقول أن يفقد الانسان الحياة لأنه يطمح إلى الطعام الهنئ والعيش الرغيد ، وليس بالمعقول من باب أولى أن يفقد الحياة ليأتى بعده من ينعم بالطعام الهنئ والعيش الرغيد وهو تحت التراب . فإذا هو أقدم على فقد الحياة فالمسألة عنده ليست مسألة حساب وموازنة أو مسألة مصلحة كبيرة بإزاء مصلحة صغيرة ، ولكنه إنما يفعل ذلك لأنه بإزاء قوة تمضى به حيث شاءت ولا يمضى بها حيث شاء ، أو لأنه فى حالة نفسية غير حالة الحساب والموازنة ووضع الأرقام بإزاء الأرقام .

وقد شوهدت فى الدنيا عادات كثيرة وعقائد لاتحصى ، ولكن لم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهى خلو من إيمان بحق ونوره على باطل ، ولم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهى قائمة على منفعة تخص صاحبها ولاتتجاوزه إلى الآخرين . ومتى تجاوزت المنفعة فرداً واحداً وأصبحت قابلة للتعميم بين الأفراد الآخرين – فهى إذن مسألة حق سابق لوجود المنافع وسابق لوجود الأفراد .

فالإيمان أبداً هو شعور بالحق وليس شعوراً بالمصلحة على وجه من الوجوه .

وقد تقف المصلحة فى سبيل العقيدة قبل الإيمان بها ، لأن المصلحة

موجودة والإيمان غير موجود . ولكنهما متى وجدا معاً مهما حيثان وليسا بشيء واحد . ويظلان أبداً شيئين من معدنين مختلفين وإن تلاقيا فى الطريق إلى مدى بعيد .

وإن إسلام بلال رضى الله عنه لمن الشواهد الكثيرة التى تقرر هذه الحقيقة فى الأذهان .

وقد عنينا بأن نبين مزايا الاسلام فى معاملة الأرقاء . ولكننا عنينا مع ذلك بأن نبين حقيقة أخرى لابد من تبينها فى هذا المقام ، وهى أن المعاملة نفسها ليست هى سبب دخول الأرقاء فى الإسلام ، وإنما هو « الحق » والشعور بجلال هذا الحق أو وجوب تغليبه على الباطل ، ولو لقى الأرقاء فى سبيله ما هو أقسى عليهم من معاملة المشركين للعبيد والإماء .

كان أول من أسلم ثمانية هم أولئك النخبة الأبرار : خديجة وأبو بكر وعلى وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد .

قال رواة صدر الإسلام . أما أبو بكر فمنعه الله بقومه وكذلك من كان لهم قوم يحمونهم . وأما سائرهم فاخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وأصهروهم فى الشمس فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا من الكفر وسب النبى عليه السلام . إلا بلالا فانه هانت عليه نفسه فى الله وهان على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول : أحد . أحد . ولا يزيد .

وجاء فى طبقات ابن سعد بأسناده ما فحواه : إنه كان من المستضعفين من المؤمنين ، وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون ، وكان الذى يعذبه أمية بن خلف . .

وكانوا إذا اشتدوا عليه فى العذاب قال أحد أحد . فيقولون له قل

كما نقول . فيقول : إن لسانى لا يحسنه . وكانوا يخلعونه فيمطرونه ويلقون عليه من البطحاء وأنطاع الأدم ويريدونه على أن يذكر اللات والعزى فلا يذكرهما ويقول : أحد . أحد . فأتى عليه أبو بكر فسألهم علام تعذبون هذا الانسان ! واشتراه بسبع أواق وأعتقه .

ومما جاء فى الطبقات أن أبا جهل جاءهم بالعشى فجعل يشتم سمية ويرفث ثم طعنها فقتلها فهى أول شهيد فى الإسلام . وهانت على بلال نفسه فى الله حتى ملوه فجعلوا فى عنقه حبلا ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبى مكة فلم يزدهم فى كلمته التى كان يرددها ولا يمل من ترديدها : أحد . أحد .

وكانوا يضربونه ويلقونه على الرمال الكاوية فى وقدة الهجير ثم يضعون الحجارة على صدره وهو لا يجيبهم إلى كلمة مما يسألونه ، ولا يسكت ولا يكف عن الجهر بالتوحيد » .

* * *

هذه صورة بلال رضى الله عنه فى مبدأ إسلامه وهو يتلقى العذاب ويتعرض للموت ولا يصل به الإسلام إلى الوعود — فضلا عن تحقيق الوعود — فى معاملة المستضعفين من العبيد والاماء ، لأن أحكام الاسلام فى معاملة الأسرى والأرقاء على التعميم لم تكن معروفة مفصلة فى ذلك الحين .

وإن آخر ما يخطر على بال المرء إذ يرى بلالا على تلك الصورة المؤلمة أنه يرى رجلا وازن بين سوء المعاملة فى الجاهلية وحسن المعاملة فى الإسلام فاختار المعاملة الحسنة ودخل فى الدين الجديد من أجلها .

لأن إسلام بلال لم يكن يخرجه من رق سادته المشركين ، ولم يكن

سوء معاملتهم إياه قبل الاسلام شيئاً يذكر إلى جانب ذلك العذاب الأليم الذى كان يسامه بعد إسلامه ، ولو كان حسن المعاملة همه من الدين الجديد لا نتظر حتى يسلم سادته فيطمع عندهم في تلك المعاملة الحسنة ، أو لانتظر حتى يمتنع جانب المسلمين بالعدد الكثير فيجهر بالإسلام بين مئات وألوف ، ولا يعجل إلى دخول الدين الجديد بين نفر من المغاوير المطاردين ، سواء من الأحرار أو العبيد .

وأعجب شيء أن يخطر للعقل أن الإسلام قد سوى بين العبيد والأحرار فآمن به العبيد ، ولا يخطر له أن هذه التسوية تغضب الأحرار فتحسبهم الأنفة أن يدخلوه ، وقد دخله الأحرار كما دخله العبيد في مبدأ التبشير بالدين الجديد .

فإن كانت لبلال وصهيب وأمثالها مصلحة في الإيمان بذلك الدين لأنه يسوى بينهم وبين أبي بكر وحمزة وعثمان وعلى والفاروق فما مصلحة هؤلاء في النزول بأقدارهم إلى حيث يساوون بعبيدهم المستضعفين وهم أولئك ذوو الحسب التي تشمخ برؤسهم على رؤوس الأحرار من أبناء كل قبيل لا يضارعهم في العزة والجاه !

فمن الحق وسكينته في النفوس فليبحث في تعليل الإيمان بكل عقيدة جديدة وكل مصلحة إنسانية فوق مصالح الأفراد . وإنما يوجد الإيمان حين يوجد للنفس حقٌّ محبوب وباطل مكروه ، ولو ضاعت في سبيل حب الحق وكراهة الباطل مصلحة عاجلة أو آجلة أو ضاعت الحياة بغير أمل في الجزاء .

ولا العبيد آمنوا لأن الإسلام يسوى بينهم وبين الأحرار ولا الأحرار

آمنوا لأن الاسلام يسوى بينهم وبين العبيد . لأن قصارى هذه التسوية أنها مصلحة لفريق من الناس . ومازال الإيمان والمصلحة شيئين مختلفين ومعدنين متباينين فالمصلحة شيء تحتويه حياة الفرد وقد تحتويه حصة ضئيلة من حياته . أما الإيمان فهو أبداً شيء يتجاوز الفرد الواحد وقد يبذل في سبيله المصلحة والحياة .

أو لم يوجد في الوثنية وفي بعض الأديان الكتابية أناس يؤمنون بالأرباب وهم يؤمنون أن الأرباب تفرق بين أقدارهم وأقدار سادتهم في الحياة وبعد الممات ؟

أو لم يكن بلال يؤمن باللات والعزى وغيرها من أرباب الجاهلية وكان لا يرجو نصفةً منها ولا تسوية بينه وبين سادته المتجبرين عليه وعلى سائر الضعفاء ؟

فلما ساء ظنه بهذه الأشتات من الأرباب كان حسن ظنه بالإله « الأحد » هو الذى سوّأ ظنه بدين الجاهلية ، وكانت وحدانية الله العلى الأعلى هي التي تجرى على لسانه وتعمر قلبه وتعينه على شدته وهو يتلظى من ألم العذاب بين يدى سادته القساة .

فكانت الوحدانية هي الكلمة الواحدة التي لخص بها فصل الدين الجديد على الدين المهجور ، وقد ألهم هذا التلخيص الصادق الوجيز إلهام الايمان الذى يهدى العقل إلى موقع الهدى من أوجز طريق . فلو أنه كان يقول « الرحيم » في موضع « الأحد » لجاز أن يقال أن في الآلهة الوثنية من يتصف بالرحمة ، أو لجاز أن يقال إن الرحمة بدرت إليه في تلك اللحظة لأنه يشتكي القسوة والعذاب . ولكنه لما ردد كلمة

الحداثة ولم يدد عنها كان قد هدى إلى الصفة الوحيدة التي لا يدعها المدعون لأرباب الجاهلية ، كما هدى إلى الصفة الوحيدة التي تجعل الايمان إيماناً بالحق ولا تجعله انتظاراً لرحمة أو غفران أو جزاء

ولا تريد أن نقول إن الايمان والمصلحة لا يجتمعان ، ولا أن نقول إن المؤمن لا تخطر له المصلحة ببال أو إنها لا شأن لها البتة في تحول العقائد والعبادات . فان المصلحة قد تعوق كثيراً من الناس عن قبول دين جديد ، وقد تنبه الأذهان إلى الإصغاء الذي يتبعه الارتياح والتصديق . وقد تكون مصلحة فرد ومصلحة ألوف من الناس ، فيستطاع الجمع بينها وبين الايمان بالخير الصميم .

ولكن الذي نقوله إن المصلحة غير الإيمان وإنهما قد يفترقان كما يتفقان ، ولو كانت المصلحة هي الايمان لو جدت المصلحة ولم تكن هنالك حاجة إلى وجود إيمان على الاطلاق ... كفى أن يسعى الانسان إلى مصلحته دون أن يجعل الايمان سبيلا إليها ، وكفى أن يلتزم المصلحة ولا يعدوها إلى الشعور الذي يجيب إليه الموت . فأما وقد وجد الايمان في كل زمن من الأزمان ، ووجد مع انتظار الجزاء ومع اليأس من كل جزاء ، فلا معنى لأن يقال إن فرداً من الأفراد قد آمن لأن له مصلحة في إيمانه ، فإنه يضم إلى المصلحة شيئاً آخر إذن حين يدعمها بالإيمان .

كلا . ليست صورة بلال على رمال البطحاء الموقدة في قيظ الصحراء صورة الرجل الذي طلب الخلاص من قسوة السادة . لأن الخلاص هو كل ما يعنيه .

وليست صورته وهو يكرر « الأحد . الأحد » بصورة الرجل الذي

دخل الدين الجديد وهو يجهل الفارق الصحيح بين الدينين . ولا يعرف للدين الجديد فضلا إلا الرحمة بالعبيد في الأرض أو في السماء

لقد كادوا يفتلونه وهو لا يحسبهم إلى تعظيم آلهتهم ولا يؤثر السكوت . ولعلهم لم يبقوا عليه إلا لشحهم بثمنه أن يضيع عليهم إن قتلوه . ولعل أبا جهل قد قتل سمية لأنها جارية عجوز لا تصلح للبيع ولا للمبادلة . ولم يقتل بلالا ولا عماراً ولا صهيباً لأنهم رجال عاملون يباعون ويشترون ... ولكنهم لاشك كانوا قاتليه آخر الأمر إن يئسوا منه ولم يجدوا من المشركين من يشتريه وهو صابئ عن دين الجاهلية . فلم يكن إسلامه سبيل رفق ولا تخفيف من عناء . بل كان سبيل عذاب ومخاطرة بالراحة والحياة .

وأي عذاب ذلك العذاب ؟

حسبنا أن نعلم أن رفقاء بلال جميعا قلوا ماسامهم المشركون أن ينبسوا به — ومنهم عمار بن ياسر — لنعلم أنه كان عذابا يفوق طاقة الانسان :

إن عماراً لم يكن يهاب الموت في هرمه . ولكنه ضاق — في صباه — بذلك العذاب الأليم

كان يجاهد مع علي رضي الله عنه وقد أناف على التسعين . وقد شهد المغازي في عهد النبي وعهود الخلفاء . وكان عليه السلام يقول : « إن عماراً ملىء إيماناً إلى مشاشه » ويجعله قدوة للمسلمين في الهداية فيوصيهم أن يقتدوا بأبي بكر وعمر وأن يهتدوا بهدى عمار . وهو أيضا لم تخدعه إلى

الإيمان طلب راحة وطمع فى حسن معاملة ، لأنه كان يرى طريق الراحة والغنيمة مع معاوية ويتصدى إلى جانب على ليموت تحت لوائه فى صفين ، وما كان على لو انتصر بمعدٍ عليه مالا ولا بمطعمه فى عيش أرغد من عيشه ، وهو عيش الكفاف .

وقد كان عمار رضى الله عنه ممن يصدق عليهم القول بأنه قد وهب عبقرية الإيمان . لأن إيمانه كان ذلك الايمان الخالص الذى يوصف بأنه الإيمان حبٌ للإيمان لا حباً بما وراءه من رضى أوجزاء . وآية المؤمن الموهوب أنه لا يرضى العيش بغير العقيدة ولا يطيب له البقاء وهو يخالف ما يعتقد . فيقبل على الموت كراهة للبقاء فى دنيا لا تواتيه على اعتقاده . وليس يقبل على الموت طلباً للجنة كما يقال ، فإن من المؤمنين بالعقائد المادية كما سلفنا من يموت فى سبيلها ولا أمل له فى حياة بعد الحياة وإن الجنة لحبيبة إلى كل إنسان يصدق بها . فليس الفرق بين رجل يجاهد ورجل لا يجاهد أن هذا يكره الجنة التى يحبها ذاك . وإنما الفرق بينهما هو قوة الإيمان أو حبة العقيدة ، وهى قد كانت فى عمار على أقوى ما تكون فى إنسان .

ومع هذا حف الموت على نفس عمار فسعى إلى لقائه عشرات المرات منذ غزا مع النبى إلى أن نيف على التسعين ومات تحت لوائه على بمعركة صفين ، ولكنه ثقل عليه ذلك العذاب الأليم الذى صبر عليه « بلال » وظل صابرًا عليه بغير أمل فى الخلاص القريب .

وكل طمع فى حسن المعاملة يزول ويبطل فى مثل ذلك العذاب الذى ضاقت به طاقة عمار .

ثم يزول ويبطل لولا إيمان يهون معه الموت ويهون معه العذاب ، ويهون معه سوء المعاملة وحسنها على السواء .

نعم إن العبيد كانوا أسرع من الاحرار إلى دخول الدين الجديد ، ولكن الذى يفهم من ذلك — أو ينبغى أن يفهم منه — أن المصلحة لم تكن عقبة بين العبيد وبين الأصغاء إلى الدعوة الجديدة ، وأن الأحرار كانت لهم مصالح تحجبهم عن جمال تلك الدعوة وعن التأمل فى صدقها وبطلان ماهم عليه ، وفرق عظيم بين القول بأن المصلحة لم تكن عائقاً عن فهم الدين والدخول فيه وبين القول بأن الدين هو المصلحة التى أرادها المؤمنون ، إذ لو كانت المصلحة هى المراد بالعقيدة لما وجدت العقيدة على الاطلاق ، ولوجدت المصالح كما هى موجودة فى الدنيا بغير اعتقاد على الإطلاق فى شئ من الأشياء .

لقد كانت فى نفس بلال حاجة إلى الولاء والإخلاص، فصدق النبى الكريم لأنه كان أهلا لولائه وإخلاصه ، وكان خليقاً أن يطمئن إليه ويشعر بالسكينة فى الإصغاء إلى قوله والاقتداء بعمله .

وسمع رجلا ينادى بأن الناس أمة واحدة وأن المؤمنين إخوة وهو فى الذؤابة العليا من بنى هاشم أو فى الذؤابة العليا من قبائل العرب جمعاء ، فكان هذا سبب التصديق والإيمان ، وكانت دعوة الرجل الحسيب النسيب التى لا مصلحة له فيها هى البرهان الأول على صدق العقيدة . ولولا انعدام المصلحة فى دعوة ذلك الرجل الحسيب النسيب لما أسرع بلال إلى تصديقه والخنوع إليه

فأما وقد جنح إليه وآمن بدعوته فالمسألة بعد ذلك لن تكون مسألة موازنة بين المعاملات أو مساومة على الزيادة والنقصان ، ولكنها أصبحت

مسألة راحة بالإيمان أو راحة بغير الإيمان ، ولم تكن لبلال راحة بغير ذلك الإيمان بعد أن جنح إليه ومزجه بقلبه وضميره . فصبر فى أيام معدودات على عذاب لم يكن ليلقاه من المشركين مدى العمر لو بقى على دينهم كما كان . . . ولقد صبر على بلاء الجسد لأنه مستريح القلب والضمير .

على أن المعاملة الحسنة قد جاءت إلى بلال من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب كأحسن ما تصبو إليه الأحلام ويتعلق به الرجاء

فبلغ من تعظيمه أنه كان نداً لأعظم المسلمين فى حياة النبى عليه السلام وحياة الصديق والفاروق . بل كان الفاروق رضى الله عنه يقول « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » ويقصده بهذا اللقب الرفيع ، واتفق يوماً أن أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو بن الحارث ورهطاً من سادة العرب طلبوا لقاء الفاروق وطلبه معهم بلال وصهيب . فأذن لهما حتى يستمع لما يريدان ويفرغ بعدهما لعلية القوم . وغضب أبو سفيان وقال لأصحابه . لم أركاليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ وكان سهيل أحكم منه وأدنى إلى الإنصاف فقال لهم : أيها القوم ! إنى والله أرى الذى فى وجوهكم . إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم . دعى القوم — إلى الإسلام — ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ! » .

* * *

مثال هذا الأدب هو الذى يهون فى سبيله الموت وسوء المعاملة والعذاب الأليم وهو الذى يوحى العقيدة إلى النفس فترتفع بها فوق المصالح والمساومات . ولقد كان هذا أدب النبى فأحبه الأحرار وأصغوا

إليه وصدقوه . . . ولقد تمت أداة العقيدة حين تم الحب والإصغاء والتصديق . فما يزال بنو الانسان على هذا الشأن إلى آخر الزمان : ليس بينهم وبين الفداء إلا قضية يحبونها وداع يصدقونه وما يكونون يوماً أحوج إلى الإيمان منهم يوم تعز عليهم القضية التى تحب والداعى الذى يصدق . فإذا بلغت بهم هذه الحاجة مداها فليس أمامهم محيص من إحدى غايات ثلاث : فناء ، أو حياة كحياة الحيوان ، أو إيمان بوجود حيث كان

صفات بلال

كان بلال وحلا على سواء الفطرة .

وآية ذلك أنه كان كما يسمع أن يكون كل رجل قوى الطبع من بنى جلدته وفى مثل نشأته ، يمر بالحوادث لتى مرّ بها ويمارس التجارب التى مارسها

وقد تقدم فى صفات الموالى الأفريقيين أنهم ينقمون الإساءة على المسىء ويحفظون الحسنة لمن يحسن إليهم ويملكهم بهباته وطيب سجاياه .

وهكذا كان بلال رضى الله عنه فى مجمل صفاته : كان متصفا بأجمل صفات بنى جلدته : وهى الأمانة والطاعة والولاء والصدق مع الولاء ، وكانت فيه مع ذلك قسوة وعناد فى موضع القسوة والعناد ، ولكنه لم يكن بالمبتدئ فى قسوته ولا بالكابر فى عناده . إنما كان لقسوته عذر أو سبب ، وكان لعناده فصل لإصرار على الإيمان بالصواب .

قال ابن الرومى :

إذا الأرض أدّت ريع ما أنت زارع
من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
ولا عيب أن تُجزى القروض بمثلها
بل العيب أن تدان دنيا فلا تقضى

فالذين أساءوا إلى بلال كانوا لا يحسون أثر الإساءة فيه ، وكانوا يطلبون منه الرضا حيث أسلفوا له المساءة فلا يجدون الرضا حيث طلبوه ، فإذا بهم ينحلونه صفاتهم ويعيبونه عساءتهم ، وينكرون صحبته كما ينكر صحبتهم . ومن ذلك أن مشتريًا أراد أن يساوم فيه سيدته قبل أن يعوتها خبره وتعرم ثمرته فقالت له مصححة . وما تصنع به؟ إنه

خبيث . . . وانه وانه ! إلى آخر ما وصفت به سخطه على سوء المعاملة وسوء العشرة .

ومع هذا قد اجمع الذين وصفوا بلالا على أنه كان طيب القلب صادق الإيمان ، وأنه أبعد ما يكون عن خبث أوكنود ، وإنما هو بشرة سوداء على طبع صاف يرى الناس وجوه أعمالهم فيه .

وقد كان أكرم صفاته الفطرية مما يوافق الطاعة وصدق الولاء ، فكان إيمانه القوى بالله ، والاخلاصة المكين لرسول الله ، هما الذروة التى ترتقى إليها محاسن بنى جلدته ، ومحاسن كل مولى مطيع ، سواء كان ولاؤه ولاء تابع لمتبوع أو ولاء معجب بمن يستحق الإعجاب .

كان حبه لرسول الله هو لب الحياة عنده ، وهو معنى الدنيا والآخرة فى طوية قلبه ، وعاش ومات وهو لا يرجو فى دنياه ولا بعد موته إلا أن يأوى إلى جواره ويتم برضاه .

وحضرته الوفاة فكانت امرأته تئن وتغلبها النكبة فى قرين حياتها فتصيح : واحزناه .

وكان هو يجيبها فى سكرات الموت : بل وافرحتاه ! غداً نلقى الأحبه . غداً نلقى الأحبه . محمداً وصحبه .

على هذا عاش وعلى هذا مات ، وماكان له من علاقة تربطه بهذا الكون المعظم إلا وهى فى حاشية منها علاقةُ بمحمد رسول الله ومحمد سيده ومولاه

وتلك الزوجة الوفية البارة كانت ترضيه فى معظم حالاتها وكانت لا تخليه من مناكفة فى بعض حالاتها كما يتفق أحياناً فى كل عشرة بين الزوجين وفى كل صلة بين إنسانين ، فكان يقبل منها كل ما يسر ويسوء إلا

أن تمه فى لب اللباب وأصل الأصول ومناط الحياة والكرامة عنده : وهو إخلاصه لرسول الله وصدق الرواية عنه . فاستطعمت يوماً ما يحدثها به عن رسول الله فإذا به يثور ويغضب ويهم بالبطش بها ثم يدع المنزل عنقاً غضباً حتى يلقاه الرسول ، فيلمح ما به من تغير حال ويعلم سره فيشفق أن يدعه على ما هو فيه وأن يدع لزوجه مظنتها فى صدقه . ويذهب معه إلى بيته فيقول للمباركة : ماحدثك عنى بلال فقد صدق . بلال لايكذب ، فلا تعصى بلالا ».

فذا المؤذن الأمين هانئ قرير .

وقد أثر عنه هذا الصدق بين الصحابة فكانوا يشكون فى أبصارهم ولا يشكون فى روايته ونقله . ويروون عنه رواية اليقين فى شئون الصلاة والصوم .

فى صحراء العرب حيث يفىء النهار إلى ما بعد غروب الشمس وتشيع لمحات النور قبل مطلعها كان بعض المسلمين يترددون فى مواعيد السحور والإفطار فيقولون : إنا لنرى الفجر قد طلع ، أو يقولون : ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد ، فإذا سمعوا من بلال أن رسول الله أكل أو أنه ترك رسول الله يتسحر فالقول ما قال بلال ، وليس للشك فى ضوء النهار مكان.

وقد لزمت بلالاً عادة الصدق فى كل كلام يبلغه المسلمين عن النبى أو يبلغه إليهم فى شأن من عامة الشئون وخاصتها ، فلما رجاه أخوه فى الإسلام – أبو رويحة – أن يسفر له فى زواجه عند قوم من أهل اليمن لم يزد على أن قال . وأنا بلال بن رباح وهذا أخى أبو رويحة. وهو امرؤ

سوء فى الخلق والدين ، فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه ، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا . . . »

فزوجوه فكان حسبهم عنده أن ينيل الوساطة ولا يرده أو يموه عليهم أوصافه !

وقد كان من ولائه لأبى رويحة هذا أن ضم ديوان عطائه إليه حين خرج إلى الشام . فلما دون الفاروق دواوين الصحابة سأله : إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟ قال : إلى أبى رويحة ، لا أفارقه أبداً . للأخوة التى كان رسول الله عقد بينه وبينى » .

وذلك أن رسول الله قد آخى بينهم قبل الهجرة إلى المدينة كما آخى بين غيرهما من صحابته الأوفياء . فكانت أخوة العمر عنده من فضل الولاء لرسول الله وكان أحب الناس إليه وألامهم يرعيه من أمره رسول الله أن يحبه ويرعاه .

* * *

وقد عرف له النبى عليه السلام هذه الخصال التى تتجمع كلها فى صفة الأمانة – وهو هو قائد الرجال الخبير بمناقب النفوس – فأقامه فى موضع الثقة وائتمنه على مال المسلمين وعلى طعامه ومؤنته وشخصه ، واستصحبه فى غزوه وحجه وحله وترحاله . وأسلمه العنزة يحملها بين يديه أيام العيد والاستسقاء ، ولم يعرف أحد من الصحابة لازمه عليه السلام كما لازمه هذا المؤذن الذى يقيم معه الصلاة وهذا الأمين الذى يحفظ له المال والطعام ، وهذا الرفيق الذى كان يظله بالقبة والستار من لفحات الهجير فى رحلات الصيف ، وربما تقدمه فركب ناقته « القصواء » التى قلما كان يركبها سواه عليه السلام ولم يدخل الكعبة معه بعد فتح مكة غير

عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد مولاه ، وبلال .

ودامت هذه الصحبة حتى قبض عليه السلام وحتى دفن فى ثراه .

فكان بلال هو الذى ذكر واجب الحنان المكلوم فى ذلك الموقف الأليم ، فحمل القربة ودار حول ذلك الثرى الشريف يبلله بالماء .

* * *

وعلى هذا الحنان فى طويته لمولاه المعظم كان للرجل ضميرٌ يعرف الإصرار على الرأى كأشد ما عرف مؤمن بعقيدة ونافر من رذيلة .

وربما كان فى الإصرار شىء من عناد بنى جلدته أبناء الحبشة وأبناء السلالة السوداء . إلا أن العناد خصلة ذات لونين أحدهما يحمد ويفيد وثانيهما يذم ويضير .

فالعناد أحد لونيه ثبات على الصواب والعقيدة ، وفى لونه الآخر ثبات على الخطأ والهوى ، ولم نعرف من العناد فى تاريخ بلال إلا أجمل اللونين وأشبههما بقوة الأسر وخلائق الأشداء

من ذلك عناده للمشركين حين ساموه العذاب ليفتنوه عن دينه ويكرهوه على سب نبيِّه كما تقدم فى وصف إسلامه ، ومنه إصراره على ترك الأذان لعمره حين رقى بنفسه أن أذانه بعد رسول الله نقص فى الوفاء ، وربما كان منه أصراره على الجهاد والسفر من المدينة إلى الشام حين سأله الخليفة البقاء فقال له فى رواية مشهورة : « إن كنت أعتقتنى لنفسك فاحبسنى ، وإن كنت أعتقتنى لله عز وجل فذرنى أذهب إلى الله عز وجل» فأبى إلا أن يمضى حيث أراد .

ولاشك أن الرحمة بالاعداء أمر لاستطر من رجل طال عهده وعهد قومه وآبائه وأجداده بقسوة الطغاة وعذاب اللؤماء فإن رحمة رجل

كهذا لمن أحسنوا إليه وسالموه خلق مفهوم لا غرابة فيه أما الخلق الذى نستغرب منه حقًا فهو رحمته فى ميدان قتال أو رحمته خاصة لمن أفرط فى الإساءة إليه

ولهذا لا نستغرب ماروى عن بلال بعد وقعة خيبر وما روى عنه بعد وقعة بدر مع المشركين . ومنهم أظلم الناس له وأقساهم عليه .

فلما افتتح النبى حصن القموص بخيبر جىء له بصفية بنت صاحب الحصن وقريبة لها دون سنها . فأرسلها عليه السلام مع بلال إلى رحله . فمر بهما بلال على القتلى من قومهما فصاحت البنت الصغيرة صياحاً شديداً ولطمت على وجهها وعلم النبى عاصنع فقال له عاتباً : أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بجارية حديثة السن على القتلى ؟ فكان عذر بلال الذى اعتذر به جوابه : يا رسول الله ما ظننت أنك تكره ذلك وأحببت أن ترى مصارع قومها !

أما فى وقعة بدر فقد كان عذره أوضح وأسلم من عذره فى وقعة خيبر

لقد رأى أمية بن خلف وابنه بعد الوقعة فى صحبة عبد الرحمن بن عوف يقودهما كما يقاد الأسرى، وقد كانا أشد الناس أيذاء للمستضعفين من المسلمين كما تقدم ، وكان بلال أوفر المسلمين نصيباً من ذلك الإيذاء اللئيم . فما وقعت عينه على أمية حتى صاح بالمسلمين من حوله رأس الكفر أمية بن خلف . لا نجوت إن نجا . ولم يغن عنه دفاع عبد الرحمن بن عوف بل جعل بلال يهم بقتله ويصيح لا نجوت إن نجا . لا نجوت إن نجا . حتى اجتمع حوله خلق كثير ، وضرب أحدهم ابن أمية فوقع صريعاً فإذا بأمية يصيح من الفزع صيحة لم يسمع مثلها قال

عبدالرحمن بن عوف : انج بنفسك ولا نجاء بك ! فوالله ما أغني عنك شيئاً . ولكن المقاتلين هبروهما بأسيافهم قبل أن يخلص له سبيل إلى الفرار .

وقد يزيد في وضوح العذر لبلال من هذه القصة أن أمية هذا كان من أحق الناس بالنقص وقلة الرحمة . لأنه كان يعذب المستضعفين تعذيب الجبان اللئيم لا تعذيب الساخط الغيور على عقيدة ، وكان يرهب القتال ولا يعرض حياته لمغامرات الحرب التي أقدم عليها شجعان المشركين . فما هو إلا أن سمع بنذير النبي إياه بالقتل حتى ارتعدت فرائصه وراح يسأل عن المكان الذي توعده بالقتل فيه . فصارح قومه بالقعود عن القتال وأنه لا يخرج لحرب المسلمين في غزوتهم تلك وهو مقصود بذلك الوعيد ، ولم يتحرك للخروج حتى جاءه أبو جهل بين الملأ بمجمرة يبخره بها ، وقال له : تجمر يا هذا فإنما أنت من النساء .

ولما نشبت المعركة ببدر كان هو وابنه في طليعة الناكصين عن القتال ، ثم قتل ابنه فكانت صيحته عليه صيحة فزع لا تسمع في ميدان . فإنما كان تعذيبه المسلمين من لؤم الجرأة على الضعيف وهو آمن في عقر داره ، ولم يكن من لدد العقيدة التي يغار عليها الرجل الشجاع ويلقى الموت هو وأبناؤه من أجلها غير وكل ولا هياب . وليس أحق من مثل هذا ببغضاء المنتقم في ساعة القصاص ، وكفى لبلال عذراً في هجمة غضبه عليه أنه يعلم إنذار النبي إياه بالقتل وأن أبا بكر هنأه بعد قتله فقال :

هنيئاً زادك الرحمن خيراً   لقد أدركت ثأرك يا بلال

وفي غير هذه الهيئة التي تدرك أحلم الناس في موطن النقمة حومة

الحرب لم تكن شدة بلال غير حمية الرجل العطوف التي تبدو منه القسوة وهو لا يعنيها . وكان في جملة أحواله مثلاً للخلق الوديع والطيبة الرضية وحلاوة النفس والاتضاع . فكان يخجله أن يسمع الناس يحمدون بلاءه في صدر الإسلام ويقدمونه على أجلاء الصحابة لثباته وصبره ، فيطرق ويقول : إنما أنا رجل كنت بالأمس عبداً ! وكانت قلة دعواه نفحة من نفحات تلك الطيبة الرضية فلم يعرف عنه أنه تصدى لتعليم الناس ما يجهلون من أحاديث النبي عليه السلام بعد ملازمته الطويلة وكثرة سائليه والواثقين بصدق ما يرويه . ولم يزد في إخباره عن النبي على ما يعنيه من إقامة الصلاة والأذان أو مواعد الإفطار والصيام .

* * *

وكان بلال من قومه في خلقين آخرين يعرفان في بعضهم، قدماء أو محدثين . وهما نزاهة النظر وحب الراحة أو الضيق بالجهد الشديد .

أرسله النبي عليه السلام مع رقية السحيمي ليرد له ابنة الذي أسره المسلمون . فلم يعنه وهو يقص نبأه على النبي أن يقول : والله ما رأيت واحداً منهما مستمراً إلى صاحبه ! فقال النبي ! ذاك جفاء الأعراب .

ووكل إليه النبي وهو مقبل إلى وادي القرى بعد وقعة خيبر أن يوقظه لصلاة الصبح — وكان الحر شديداً ، فنام حتى طلعت الشمس . ثم صلى عليه السلام بمن معه وإن أحدهم ليسلت العرق عن جبينه من حر ذلك اليوم ، فلما سلم قال : كانت أنفسنا بيد الله فلو شاء قبضها وكان أولى بها ثم التفت إلى بلال فهتف به : مه يا بلال . فبادر بلال معتذراً وهو يقول . بأبي وأمي . قبض نفسي الذي قبض نفسك ! فتبسم عليه السلام .

وإنما تدل هذه السهوة – وإن لم تتكرر – على إيثار الراحة لأنها غلبت كل حذر من تفويت صلاة الفجر حاضره على النبي وصحبه ، وهو حذر كان ولاشك في نفس بلال شديداً بل أشد من الشديد .

* * * *

وآخر مايروى من أعمال بلال وقفته مع خالد بن الوليد حين مر الفاروق بسؤاله عن الهبات التي كان يهبها لبعض الشعراء . فقد سكت خالد وأبو عبيدة يسأله عن تلك الهبات أهي من ماله أم من مال المسلمين؟ وهو معرض لا يجيب . فوثب إليه بلال ثم تناول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه وسأله ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ فعند ذلك أجاب خالد : بل من مالي فأطلقه وعممه بيده ، وهو يقول : « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » .

ذلك آخر ماروى من أعمال بلال في خدمة الخلافة ، ولكنه يجمع أعماله كلها وخلائقه كلها في عمل واحد وخلق واحد ، وهو الطاعة الحريئة التي لا تنسى التفخيم والتعظيم إلا في سبيل طاعة أكبر منها وأوجب . فلم يكن أسرع منه بين شهود الموقف إلى عمامة خالد يمر الخليفة وأمر الله ، ولم يكن أسرع منه إلى السرور بتفخيمه وتعظيمه حتى فرغ الحساب .

كانت طاعته للمرء الذى يطاع والأمر الذى تجب له الطاعة وهى طاعة القوى الشريف ، وليست بطاعة المسخر الضعيف ، وقد عصى سادته والموت جاثم على صدره ، وفرض الطاعة على من يهابه العصاة . فكان سيد المطيعين ، ولا يشرف الإنسان إن لم يكن سيد الآمرين إلا أن يكون سيد المطيعين .

الآذان

أشبه الأشياء بالدعوة إلى الصلاة دعوةٌ تكون من معدن الصلاة وتتم على صوت من أصوات الغيب المحجب بالأسرار : دعوة حية كأنما تجد الإصغاء والتلبية من عالم الحياة بأسرها ، وكأنما يبدأ الإنسان فى الصلاة من ساعة مسراها إلى سمعه ، ويتصل بعالم الغيب من ساعة إصغائه إليها .

دعوة تلتقى فيها الأرض والسماء ، ويمتزج فيها خشوع المخلوق بعظمة الخالق ، وتعيد الحقيقة الأبدية إلى الخواطر البشرية فى كل موعد من مواعد الصلاة ، كأنها نبأ جديد .

الله أكبر . الله أكبر .

تلك هى دعوة الأذان التى يدعو بها المسلمون إلى الصلاة ، وتلك هى الدعوة الحية التى تنطق بالحقيقة الخالدة ولاتومئ إليها ، وتلك هى الحقيقة البسيطة غاية البساطة ، العجيبة غاية العجب ، لأنها أغنى الحقائق عن التكرار فى الأبد الأبيد ، وأحوج الحقائق إلى التكرار بين شواغل الدنيا وعوارض الفناء .

المسلم فى صلاة منذ يسمعها تدعوه إلى الصلاة ، لأنه يتذكر بها عظمة الله وهى لب لباب الصلوات .

وتنعرج عنها هدأة الليل فكأنها ظاهرة من ظواهر الطبيعة الحية تلبيها الأسماع والأرواح ، وينصت لها الطير والشجر ، ويخف لها الماء والهواء ، ويبرز الدنيا كلها بروز التأمين والاستجابة منذ تسمع هتفة الداعى الذى يتعب بها « إن الصلاة خير من النوم » .

فتخرج كلها إلى الحركة بعد لمحة أو لمحتين ، وتقول كلها إن الحركة صلاة حية يبيد محرك الأشياء ، وإن الصلاة خير من النوم .

وإذا ودع بها الهاتف ضياء النهار واستقبل بها حنايا الليل فهو وداع متجاوب الأصداء ، كأنه ترجمان تهتف به الأحياء أو تهمس به فى حجج المساء . وكأنه ينشر على الآفاق عظمة الله فتستكين إلى سلام الليل وظلال الأسرار والأحلام .

وإنها لتسمع بالليل ثم تسمع بالنهار .

تُسمع والنفوس هادئة كما تسمع والنفوس ساعية مضطربة : توقظ الأجسام بالليل وتوقظ الأرواح بالنهار ، فإذا هى أشبه صباح بسكينة ، وأقرب ضجيج إلى الخروج بالإنسان من ضجيج الشواغل والشهوات .

حى على الصلاة !

حى على الفلاح !

نعم هذا هو الفلاح جد الفلاح ، لأن كل فلاح بغير الإيمان هو الخسار كل الخسار .

* * *

وما يعرف وقع الأذان من شىء كما يعرف من وقعه بمعزل عن العقيدة ومعزل عن العادة والسنة المتبعة ، أو كما يعرف من وقعه فى بداءة الأطفال وبداءة الغرباء عن البلاد ، وعن عقيدة الإسلام .

فى الطفولة نسمع الأذان ، ولانفهمه ولكننا نميزه حين يحيط بنا بين دعوات هذه الأرض وبين صيحات اللعب وصيحات البيع والشراء : ونؤخذ به ونحن لاندرى لم نؤخذ ، ونود لو نساجله ونصعد إليه ونستجيب دعاءه ، ويفسره المفسرون لنا « بأمر الله » فنكاد نفهم كلمة الأمر ونكاد نفهم كلمة الله ، ولكننا نحارف البقية ونحيلها إلى الزمن المقبل . ثم تنقضى السنوات بعد السنوات من ذلك الزمن المقبل ونحن نتعزى من حيرة

الطفولة بأننا مانزال حائرين ، وإن سميت الحيرة بأسماء بعد أسماء وأطلق عليها عنوان بعد عنوان .

وفى الذكريات أصداء تكمن فى النفس من بعيد ويلتفت المرء لحظة من اللحظات فكأنما هو قد فرغ من سماع تلك الأصداء منذ هنيهة عابرة ، ثم التفت على حين غرة ليرقب مصدر ذلك الصدى الذى سرى إليه .

إن أبقى هذه الأصداء فى كل ذاكرة هى صيحة الأذان الأولى التى بعث إليها آذان الطفولة لأول مرة ، ومازالت تبتعد فى وادى الذاكرة ثم تثنى إليه من بعض ثنياتها القريبة . فإذا المرء من طفولته الذاكرة على مدى وثبة مستطاعة ، لو تستطاع وثبة إلى ماض بعيد أو قريب

أما الغرباء عن البلاد وعن عقيدة الإسلام فما يلفتهم من شىء من شعائر العبادة الإسلامية كما يلفتهم صوت الأذان على المنائر العالية ، كيفما اختلف الترتيل والتنغيم .

يقول إدوارد وليام لين صاحب كتاب « أحوال المصريين المحدثين وعاداتهم » إن أصوات الأذان أخاذة جدا ولاسيما فى هدأة الليل

ويقول جيراردى برفال فى كتابه سياحة بالمشرق : « إننى لأول مرة سمعت فيها صوت المؤذن الرخيم الناصع خامرنى شعور من الشجو لايوصف . وسألت الترجمان : ماذا يقول هذا الهاتف ؟

قال : إنه ينادى أن لا إله إلا الله . قلت : فماذا يقول بعد هذا ؟

قال . إنه يدعو النيام قائلا : يامن ينام توكل على الحى الذى لاينام . . . »

وأنشأ الكاتب المتصوف « لافكاديوهيرن » Lafcadio Hearn رسالة وجيزة عن المؤذن الأول — أى بلال بن رباح ستأتى ترجمتها بعد هذا الفصل فقال « إن السائح الذى يهجع لأول مرة بين جدران مدينة شرقية ، وعلى مقربة من إحدى المنائر، قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذى ينبعث به دعاء المسلمين إلى الصلاة . . . وهو لاشك سيستوعب فى قلبه — إذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة — كل كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة . ويتبين مقاطعها وأجزاءها فى نبرات المؤذن الرنانة ، حينما أرسل الفجر ضياءه المورد فى سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم وإنه ليسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح : يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ، ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تتسرب هذه الألوان الزاهية فى صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد . ثم يسمعه آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التى ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذى لايزول . ولعله يسمع فى المرة الأخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنعة بأسرار جديدة على أذنيه ، فإذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيرادى نرفال أجابه ولاشك بتفسير كذلك التفسير : يامن تنام توكل على الحى الذى لاينام . . عظات جليلة تعيد إلى الذاكرة تلك الآيات التى ينقشونها فى المشرق على بعض الحجارة الكريمة ومنها « لاتأخذه سنة ولانوم » . فإن كان الترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبئه أن المؤذن الأول — أول من رتل الدعاء إلى الصلاة — كان الخادم المقدس الذى اصطفاه نبى الإسلام لهذه الدعوة ،

بلال بن رباح ، صاحب الصريح الذى يشار إليه للسائح فى ناحية من دمشق حتى هذا اليوم ؛ .

* * *

وقد لمسنا عن أثر الأذان البالغ فى روع كثير من السائحين والسائحات الذين ينزلون ببلدتنا أسوان خلال الشتاء أو يمرون بها فى الطريق من السودان وإليه .

فإنهم كانوا يصلون إلى أسوان وقد عمروا الأذان مرات فى القاهرة والإسكندرية وربما عمره فى غيرهما من البلدان الإسلامية ولكنه كان يفاجئهم بجدة لاتبلى كلما طرق أسماعهم بالليل أو النهار — ولاسيما أيام الجمعة . وكان من المصادفات الطيبة أن مؤذن الجامع الأكبر بالمدينة كان حسن الصوت منطلق الدعاء يمزج العبرة الدينية بالعبرة الفنية فى أدائه ، فكان يجيل إلينا وهم يصغون إليه أنهم يتسمعون هاتفاً من هواتف الغيب يطرق الأسماع فى وقت رتيب ، أو يترقبون طائرا من طوائر الحجة التى تأتى فى الأوان ولكن كما يأتى كل شىء غريب .

وكان من عادات المؤذنين التى نشأوا يعيدونها فى شهر رمضان إلى عهد قريب أن يدقوا طبول السحور على المنائر العالية فى الهزيع الأخير من الليل . فشكا بعض النازلين بالفنادق القريبة من المنارة وترددوا فى تبليغ شكواهم إلى رجال الحكومة لأنهم حسبوا هذه الطبول شعيرة من شعائر الإسلام ، فلما سأل عنها بعض مثقفيهم وقيل لهم إنها عادة من عادات البلد وليست شعيرة من شعائر الدين تقدموا برجائهم وقالوا : إننا لانشكو من الأذان لأنه لايقلقنا ولايزال يسرى إلينا فى ساعة الفجر كما يسرى الحلم الجميل . ولكننا نقلق من هذه الطبول التى تدق فوق رءوسنا ، وكنا

نحتملها لوعلمنا أنها شعيرة لاتبديل لها ولكننا علمنا أنها تبدل فى كل بلد إسلامى على حسب عاداته . وأن المدن الكبرى تستبدل بها طبولا صغيرة تدق على الأبواب : فاسمحوا لنا أن نهدى إلى البلد بعض هذه الطبول .

وكانت هذه الطبول مما يباع فى كل موسم للسائحين على أحجام مختلفة . لأنها كانت تستخدم فى عهد الدراويش بالسودان ، إما لجمع الجند أو لتنبيه الغافلين أو للتوقيع والتنغيم ، وكانت ملابس الدراويش وأسلحتهم وأدوات معيشتهم مما يبحث عنه السائحون فى أسواق البلدة ، فبرعوا بالطبول الصغيرة فرحين لأنها تنقذهم من قرع الطبول حين يختلط بأصوات المؤذنين ، فيقلقهم ويشوه عندهم جمال الأذان الهيف على أسماع النيام

* * *

وقد كانت هذه الطبول وشيكة فى بداية الأمر أن تقوم مقام الأذان فى دعوة المسلمين إلى الصلاة .

إذ لم يكن الأذان كما نسمعه اليوم معروفاً قبل انتشار الاسلام فى مكة والمدينة ، وإنما كان المسلمون طائفة قليلة يدعون إلى الصلاة الجامعة بالنداء يُسمع من قريب ، فلما صرفت القبلة إلى الكعبة فكر المسلمون فى دعاء إلى الصلاة يسمعه المنتشرون بالمدينة من بعيد

ومن جملة الروايات التى جاءت فى طبقات ابن سعد وغيرها يُفهم أنهم كانوا قبل أن يؤمر بالأذان ينادى منادى النبى عليه السلام : الصلاة جامعة ! فيجتمع الناس . فلما صرفت القبلة إلى الكعبة تذاكر المسلمون الأمر فذكر بعضهم البوق وذكر بعضهم الناقوس وذكر بعضهم ناراً توقد كنار القرى ، ثم تفرقوا على غير رأى ومنهم عبدالله بن زيد

الخزرجي . . . فلما دخل على أهله قالوا : ألا تعشيت ؟ قال : لا أذوق طعاماً . فإني قد رأيت رسول الله قد أهمه أمر الصلاة ، وبينا أنا نائم رأيت رجلاً وعليه ثوبان أخضران وفي يده ناقوس . فسألته : أتبيع الناقوس ؟ فقال : ماذا تريد به ؟ قال : أريد أن أبتاعه لكي أضرب به للصلاة لجماع الناس . فأجابه الرجل : بل أحدثك بخير لكم من ذلك . تقول : الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . حي على الصلاة حي على الفلاح . الله أكبر . الله أكبر . لا إله إلا الله . ونادى الرجل بذلك النداء وهو قائم على سقف المسجد ثم قعد قعدة ثم نهض فأقام الصلاة .

فلما استيقظ عبد الله بن زيد من منامه ذهب إلى النبي عليه السلام فقص عليه مارأى فقال له : قم مع بلال فألق عليه ماقيل لك وجاء الفاروق بعد ذلك فقص على النبي مناما يشبه ذلك المنام .

وجرى الأمر في الدعوة إلى الصلاة منذ ذلك اليوم على الأذان كما نسمعه الآن ، وزاد بلال في أذان الصبح « الصلاة خير من النوم » فأقرها النبي عليه السلام ، وبقي النداء في الناس بالصلاة الجامعة للأمر حدث فيحضرون له يخبرون به مثل فتح يقرأ أو دعوة يدعون إليها ، وإن كان في غير وقت الصلاة .

ولا اختلاف في صيغة الأذان بين الطوائف الإسلامية جمعاء . إلا أن الشيعة يضيفون إليه « حي على خير العمل » مع حي على الصلاة وحي على الفلاح . ويردد المالكية التكبير مرتين بدلا من أربع مرات .

ولا اختلاف كذلك في جواز التلحين والترجيع في الأذان مالم يخل

بنطق الكلمات ومخارج الحروف . إلا أن الحنابلة يعلنون الأذان بغير تلحين ، ويتصرف الأحناف في بعض الترجيعات .

وقد ندب بلال بن رباح للأذان من خطبه الأولى فلم يسمع لأحد أذان قبله ولم يسبقه إلى ذلك سابق في تاريخ الإسلام ، وهو شرف عظيم . لأن محمد بن عبد الله كان إمام المسجد الذي كان مؤذنه بلال بن رباح .

ومن المتفق عليه في أقوال الصحابة أن بلالا كان عجيب الصوت إلى أسماع المسلمين ، وأنهم كانوا يقرنون دعوته بصلاة النبي بهم فيزيدهم هذا خشوعاً لسماع صوته فوق خشوع .

على أننا نقرأ في أنباء فتح مكة أن رهطاً من المشركين كانوا ينكرون نداءه ويتساءلون : أما وجد محمد غير هذا العبد ينعق على ظهر الكعبة ؟ وكانوا يستكبرون من رجل كائناً من كان أن يعلو ظهر البيت الذي لم يصعد إليه أحد في الجاهلية . فهالهم أن يروا « عبداً » يصعد إليه ويجهر بذلك النداء .

قال بعضهم للحارث بن هشام : ألاترى إلى هذا العبد أين صعد ؟ فلجأ الرجل إلى حكمة المضطر وقال : دعه : فإن يكن الله يكرهه فسيغيره .

وكان الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد جلوساً بفناء الكعبة يوم أمر النبي بلالا أن يصعد إلى ظهر الكعبة فيقيم الأذان . فقال عتاب . لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا فيسمع منه مايغيظه ، وقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته .

وأنكر أبو سفيان ما سمع أو قيل في بعض الروايات أنه حمجم قائلا لا أقول شيئاً . ولو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصاة .

وقبل أن نحيل هذا الإنكار إلى شيء يؤخذ مأخذ النقد ينبغي أن نذكر أن ذلك الوصف جاء من المشركين الذين كانوا خلقاء أن ينكروا أول أذان يرتفع في سماء مكة ولو رنمت به الملائكة ، وتحدثت به سواجع الأطيار ، وأنهم سمعوه زعيقاً و « نهيقاً » كما قالوا لأنهم سمعوا شيئاً لا يعيبونه ولا يستريحون إليه . وكانت بهم عنجهية السادة في النظر إلى العبيد ، وكان ببلال عندهم وتر معروف بمن قتل من سادات مكة في غزواته مع النبي عليه السلام .

فإذا رددنا إعجاب المسلمين بصوت المؤذن الأول إلى الخشوع ثم إلى ذكر النبي الحبيب ، ورددنا كره المشركين إياه إلى النعرة ثم إلى العنجهية والعداء ، فقد بقي شيء واحد يتفق عليه هؤلاء وهؤلاء وهو جهارة الصوت وابتعاد مداه في أجواز الفضاء ، ولا حاجة بنا إلى القضاء في الموازنة بين خشوع المسلمين وعداء المشركين لنقول إن اختيار النبي إياه يدعو ، يدعو المسلمين دعوة عامة يسمعها كل يوم خمس مرات – هو الشهادة لصوت المؤذن الأول بالسلامة من النعرة والنشوز المعيب . فما عهد محمد عليه السلام خاصة إلا أنه كان يحمد المنظر الحسن . وكان ينكر كل نكير ويستريح إلى كل جميل .

المؤذن الأول

كتب عن الخلفاء الراشدين وكبار القادة والولاة من صحابة النبي عليه السلام كلام كثير باللغات الأوربية فى أثناء الكتابة عن تاريخ الإسلام . ولكن الذى كتب عن الصحابة ممن لم يتولوا الحكم ولا اشتركوا فى السياسة العامة — كبلال بن رباح — جدُّ قليل ، ومن هذا القليل الذى كتب عن بلال خاصة فصلٌ فى اللغة الإنجليزية للأديب القصصى لفكاديو هيرن Lafcadio Hearn . الذى عمل حيناً فى الصحافة الأمريكية وقضى زماناً فى جزر الهند الغربية التابعة لفرنسا ثم جال بين بلاد الشرق واستقر باليابان وبنى فيها بزوجة يابانية ومات هناك سنة ١٩٠٤ بعد أن قضى حياته الأدبية كلها هائماً بنفحات الشرق الروحية سواء هبت عليه من بلاد العرب أو من الصين أو اليابان

ولاشك أن ترجمة هذا الفصل إلى العربية ترده إلى اللغة التى هى أحق به وأولى . وبعد ماسية نقله إلى العربية سانحةُ كل السوح فى صدد الترجمة لبلال رضى الله عنه برسالة مستقلة به مقصورة عليه وهو عدا ذلك فصل قيم يفيض بالعطف الإنسانى والروح الشعرية والفكاهة الأدبية ، ويضيف كثيراً الى علمنا بأثر الأذان الاسلامى فى نفوس الأدباء الغربيين ، ولاسيما الأدباء من طراز هيرن الذين أظمأتهم الحضارة العصرية وتشوقت نفوسهم إلى الرى الروحانى من ينابيع أخرى غير ينابيع أمريكا وأوربا .

وقد مهد هيرن لفصله عن « المؤذن الأول » بأبيات الشاعر إدوين أرنولد Edwin Arnold التى يقول فيها مخاطباً العزة الإلهية :

« لو أن عابديك اليوم على الأرض طاف بهم طائف من الفناء — فجاءة وصمت كل مؤذن يرفع الصوت بالتكبير فى سكينة السماء — لما

خلت الدنيا بعد هذا من آيات تشهد بوجودك على الأرض وفى أغوار الماء . نعم . . . ولو ذهبت هذه ودهت الأرض معها لبقيت لك آيات فى أعالى السماء أعظم وأسمى . إذ كل شارقة فوقنا من تلك الشموس التى تشتعل إلى مطلع النهار وتلك الكواكب التى يعود بها الليل كل مساء — هى يارب « دراويشك » التى تدور فى حلقة الذكر حول عرشك الوضاء » .

ثم قال هيرن : « إن السائح الذى يهجع لأول مرة بين جدران مدينة من مدن الشرق على مقربة من إحدى المنائر على المساجد الجامعة — قلما تعوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذى يبعث به دعاء المسلمين إلى الصلاة ، وهو لاشك يستوعب فى قلبه — إذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة — كل كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة ، ويتبين مقاطعها وأجزاءها فى نغمات المؤذن الرنانة حينما أرسل الفجر ضياءه الموَرَّد فى سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم . وإنه ليسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح : يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تتسرب هذه الألوان الزاهية فى صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد ، ثم يسمعه آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التى ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذى لايزول ، ولعله يسمع فى المرة الأخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنّعة بالأسرار جديدة على أذنيه . فإذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيراردى نرفال أجابه ولاشك بتفسير كذلك التفسير : يامن تنام توكل على الحى الذى لاينام . . عظات جليلة نعيد

إلى الذاكرة تلك الآيات التى ينقشونها فى المشرق على بعض الحجارة الكريمة وصيها « لاتأخذه سنة ولا نوم » . . . فإن كان الترجمان عن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله يشير أن المؤذن الأول – أول من رتل الدعاء إلى الصلاة – كان الخادم المقدس الذى اصطفاه نبى الإسلام لهذه الدعوة – بلال بن رباح – صاحب الضريح الذى يشار إليه للسائح فى ناحية من دمشق حتى هذا اليوم .

أما بلال هذا فكان أسود إفريقياس أبناء الحبشة قد اشتهر بقوة يقينه وهو يتحدى دين الإسلام ، وبغيرته على الدعوة النبوية وجمال النبر فى ترجيع صوته – ذلك الصوت الذى تناوله ومد فيه وكرره كل مؤذن فى الإسلام منذ أكثر من ألف ومائتى عام .

وقد رجّع بلال أذانه قبل أن ترتسم فى الذهن صورة المنارة الأولى ، وقبل أن يؤثر القوم اختيار المؤذنين من العميان مخافة أن يرمق المؤذن بعينيه منظراً محرماً وهو يطل من علٍ على سقوف المدينة .

واليوم ترتفع إلى السماء منائر لاعداد لها فى كل موطن من مواطن الإسلام حتى واحات الصحراء ، وقد تقدم على بناء بعضها أيد حاذقة بميزان البناء فيخيل إلى من يراها أنها تتلوى من الوحدة ، كمئذنة « أوحلة » التى رآها فكتور لارحو Larzo فى سنة ١٨٧٧

أما الكلمات التى يرددها المسلمون فى أنحاء عالم الإسلام من حيث تقوم بنى القرميد التى ترتفع على قبور الصحراء إلى تلك المنائر السحرية الحالمة التى ترتفع على مسجد « أحرا » عند ضريح « تاج محل » بالهند – فهى نصها وفصها تلك الكلمات التى ترنم بها صوت بلال المكين .

ولا تزال للمؤذن شروط ترعى حتى اليوم ليسمح له بأداء الأذان .

تعليه أن يحفظ القرآن وأن ينزه اسمه وسمعته عن كل سوء ، وأن يكون له صوت واضح جهير وبحجة فصيحة وعبارة لا عوج . صحيحة . ولكن شروط الصوت الحسن التى كانت تطلب من المؤذن فى صدر الدعوة المحمدية والمسلمون على ذكر من صوت بلال قد كانت أندر وأصعب مما اكتفى به بعد ذلك وقد روى الشاعر الفارسى الأشهر مصلح الدين السعدى فى كتابه بستان الورد غير نادرة واحدة تدل على آراء أبناء عصره فيما يرجع إلى اختيار المؤذنين وقراء آى الذكر الحكيم .

قال فى بعض تلك النوادر إن مؤذناً فى سنجار تعوّد أن يؤدى الأذان أداء صحيحاً ولكن بصوت كريه إلى كل من سمعه ، وكان صاحب المسجد أميراً عادلا لايسىء فى عمل من أعماله ، فلم يشأ أن يجرح فؤاد المؤذن المسكين ، وخاطبه على نحو يرضيه فقال له : ياسيدى . إن لهذا المسجد مؤذنين أقدمين يعطى كل منهم خمسة دنانير . فهل لك فى عشرة دنانير تأخذها أنت على أن تترك لهم مهمة الأذان فيه ؟ . . فقبل الرجل عرض الأمير وغادر المدينة إلى حيث شاءت له المقادير .

إلا أنه لم يلبث غير قليل حتى عاد إلى الأمير قائلا : لقد ظلمتنى يامولاى إذ قد زينت لى أن أترك هذا المسجد من أجل عشرة دنانير . فإنهم قد عرضوا علىّ عشرين ديناراً حيث كنت على أن أفارقهم فأبيتها . . فابتسم الأمير وقال : لا يخدعوك إذن . فإنى لأحسبهم معطيك خمسين ديناراً أو يزيد على ذلك إذا أصررت على البقاء هناك !

وفى الكتاب نادرة أخرى لاتقل عن هذه فى طرافتها ، ويزيدنا فهمها لها أن نذكر أن الأسلوب العربى المأثور فى تلاوة القرآن يكاد يعلو على كل أسلوب معروف فى التلاوات الدينية وخلاصة النادرة أن قارئاً من

حفاظ الكتاب كان يجوّد الآيات بصوت غير جيد . فرّ به رجل عطش وسأله : كم أجرك على هذه القراءة ؟ فقال الحافظ : لاشيء ! قال الرجل : وفيم إذن عناؤك هذا ؟ قال : حبا لله ! قال الرجل العطش : حبا لله إذن لا تقرأ يرحمك الله .

• • •

وبدأ بلال حياته عبداً لأنه كان وليد جارية حبشية ، ولم يعرف من شأنه فى الطفولة غير النزر اليسير . ومن وصف سيروليام موير إياه يظهر أنه كان فاحم السواد كثيف الشعر وكانت لوجهه ملامح الزنوج ، وأنه كان طويلا أجنأ كأنه الجمل ، لا يروق النظر ولكنه شديد الأسر مجدول الجسد متين الأعصاب .

وقد كان لدعوة محمد الأولى أثر عميق فى قلوب عبيد مكة ، لأن هؤلاء القوم الغرباء فى ربقة العبودية بين أناس غير أهلهم قد تلقوا ولا ريب دعوة النبى إلى الأخوة العليا التى تكلأ الناس جميعاً كما يتلقى الجريح بلسم الشفاء والحزين سلوة العزاء .

ولعل بلالا كان أول من دان بالإسلام من بنى جلدته ، ولذلك قال النبى عنه إنه أول ثمرة من ثمرات الحبشة ، ولعل العبد الصغير قد تلقن من والدته السوداء شيئاً من تلك الخواطر الفجة التى شاعت فى الحبشة باسم الديانة المسيحية فى القرن الرابع فهيأت ذهنه لقبول وحدانية الإسلام .

وما هو إلا أن بدأت فترة الاضطهاد حتى انصب أشده وأقساه على هؤلاء العبيد . فقد كانت سنة العرب منذ عهد بعيد أن يحمى الرجل ذوى قرباه ولو كلفته حمايته بذل الحياة . فمن سفك دم عربى فهو غير آمن

أن يرتد عليه أهله بالثأر وأن يستتبع ذلك حرباً سجالاً بين العشيرتين إلى زمن طويل . ومن ثم كان محمد وصحبه الأحرار يأمنون بعض الأمان على أنفسهم من سطوة التنكيل العنيف . ولم يكن للعبيد مثل هذه الحماية ، فتناولتهم الأيدى بالضرب وتلقوا تدر الموت وذاقوا أمر العذاب معرضين لنيران القيظ فى شمس الجزيرة العربية اللافحة . فكانت غواية الماء البارد والظل الوارف والطعام الشهى تحت هذا العذاب الذى يضاف إليه عذاب الجوع والظمأ أشد من أن تدفعها عزيمة أولئك المساكين . . . فازالوا واحداً بعد واحد يتفوهون بالعبارات التى كانت تملى عليهم سباً لنبيهم ولو خرجت من الشفاه دون القلوب ، وجعلوا يقسمون باللات والعزى على صدق مايقولون ، وطالما عاد بعضهم فبكى ندماً على مافرط منهم فى تلك المحنة النكراء .

ولكن النبى قد استنزل لأولئك المساكين عزاء وافياً عا ذكره القرآن عنهم ، حيث جاء فيه : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون . من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » .(١)

وقد ظل بلال وحده ثابت القلب واللسان فلم يصبأ ولم ينل من عقيدته ألم الضرب ولا حر الظمأ ولا طول التعريض للشمس على بطاح مكة الملتهبة ، وعجزت كل هذه المحن أن تثنى عزيمته الحديدية ، فلم يكن له جواب على كل أمر يتلقاه من معذبيه إلا أن يردد قوله : أحد ! أحد ! مشيراً إلى وحدانية الله الذى ليس له شريك .

هذه الفترة فى حياة بلال أيام دخوله فى الإسلام هى التى اختارها

(١) سورة النحل ١٠٥ ، ١٠٦

الشاعر الفارسي فريد الدين العطار للإشادة بها في كتابه منطق الطير ، فقال : « إن بلالا قد تلقى على جسده الهزيل ضربات العصى من الخشب ، والسياط من الجلد ، فتمزق إهابه وسال الدم من جراحه ولم يمسك قط عن توحيد الله الذى لا إله غيره » .

واتفق ذات يوم – والحبشى المسكين يتلظى من ألم ذلك العذاب – أن عبر به رجل نحيف البدن صغير القد جميل الملامح واسع الجبين فشهد فيمن يشهدون ثبات بلال وشدة عذابه .

وكان ذلك الرجل النحيف هو التاجر عبد الله بن عثمان أبى قحافة ، ويعرف فى التاريخ الإسلامى باسم أبى بكر صديق النبى الحميم وزميله فى ذلك الكهف الذى تقول الرواية إن العناكب سحت على مدخله خيوطها لتخفى اللاجئين إليه عمن يتعقبونهما ، ويدعى أبو بكر أيضاً بالصديق أى المخلص الوفى ، وكان أبا السيدة عائشة التى قدر لها أن تقترن بالنبى وقدر لأبيها أن يخلف النبى على رعاية شأن المسلمين بعد وفاته ، وكان إلى ذلك الحين قد أنفق كثيراً من ثروته التى تبلغ أربعين ألف درهم فى شراء العبيد الذين سيموا العذاب على أيدى سادتهم من أجل دخولهم فى دين الإسلام ، ومعظمهم رجال مهازيل أو نساء ، فكان أبو قحافة يؤاخذه لأنه ينفق ماله فى إعتاق النساء والضعفاء ويقول له هلا أنفقته فى إعتاق الأقوياء الذين يشدون أزرك ويدرءون عنك عدوك ؟ وكان أبو بكر يجيبه : كلا . يا أبت . إنما أريد به وجه الله .

ويقول الرواة إن هذا البذل السخى فى سبيل التقوى قد أفقر الرجل حتى لبس الثياب الخشنة من شعر المعز الذى يلفق بالسلا .

فلما شهد بلالا فى ذلك العذاب لم يطل صبره على رؤيته تلك الحال

وأخذ لتوه يساوم أمية بن خلف وأبىّ بن خلف فى ثمنه فباعاه بساعة وعشرة دنانير .

وقليلا ما كان يخطر على بال أحد من شهود تلك الصفقة ، أن يوماً من الأيام سيأتى على أمية وابنه يسألان فيه الرحمة من عبدهما الذى ضنا عليه بكل رحمة فلا ينالانها . فما انقضت عشر سنين على ذلك اليوم حتى ظفر بلال بصاحبيه وسنحت له فرصته بعد وقعة بدر الحامية ، فوقعت عليهما عيناه بين أسرى قريش ، وشق عليه أن يبطش بهما وهما يتيمان على مشهد منه ، لأن الإسلام لا يأمر الذين يدينون به أن يجزوا الشر بالخير .

وقد كان بلال فى الحقيقة أول عبد فيمن أطلقه أبو بكر ، فأرسله عتيقاً لوجه الله .

وكان بلال رجلا قوياً ، فلا يفهم وصفه بالهزال فى قصيدة الشاعر الفارسى إلا على معنى الهزال الذى تصف به الطبيعة البشرية بالقياس إلى قوة الروح .

ولم يلبث لسان الكذب والوشاية أن قال قولته فى السبب الذى بعث أبا بكر إلى شراء الحبشى المعذب ، فزعم من زعم أنه توخى الفائدة ولم يتوخ التقوى والصلاح ، وكانت هذه الأكذوبة خليقة أن تسرى مسراها فى البيئة التى عهدت ذلك التاجر الورع زماناً وهو الأريب الخبير بتصريف التجارة ، ولكن محمداً كان ينكر ما يلغطون به ويوسع القائلين به تأنيباً وملامة ، وفى ذلك يقول الكتاب من سورة الليل : « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا

تردى ، إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم ناراً تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى ، الذى كذب وتولى ، وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » (١)

ومن ثم أصبح بلال خادماً أميناً لمحمد « عليه السلام » وكتب له أن يساهم بنصيبه فى نشر دعوة الإسلام .

وتزعم بعض الروايات أن بلالا عاد بعد هجرة النبى فوقع فى أسر قريش فعذبوه وصاموه ، ولكنها رواية لا يوثق بها فى رأى المراجع التى تعتبر حجة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وإنما نلتقى ببلال مرة أخرى بعد عتقه فى المدينة حيث كان المؤذن الأول بعد الاتفاق على الأذان .

* * *

ولم يكن الأذان معروفاً فى مستهل الدعوة الإسلامية حين كان المؤمنون قلة قليلة تقيم إلى جوار نبيها ، وإنما كان الأذان صيحة مسموعة ينادى بها المنادى إلى الصلاة الجامعة .

ثم عرف الأذان بعد بناء مسجد المدينة وتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة وكعبتها . إلا أن بيت المقدس لم يزل له شأن فى المأثورات الإسلامية ولم يزل عزيزاً فى قلوب المسلمين .

ألا يذكر الذاكرون من علامات الساعة الكبرى أن عيسى بن مريم سيقبل عند حلول الساعة إلى مسجد بيت المقدس قبيل صلاة الفجر فيشرق المسجد بطلعته ويتقدم إلى محراب الإمام فيبهت أولئك الذين يزعمون أنهم من أتباعه حين يعلن بينهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟

(١) سورة الليل بأكملها

أما كيف خطرت فكرة الأذان فقد كان ذلك بتوفيق عجيب . وفحواه أن النبى حين فرغ من بناء مسجده — الذى يعد على زهادة بنيانه مثالا للأسلوب العربى فى البناء — تبين على الأثر أن دعوة المسلمين إلى الصلاة على النحو الذى اتبعوا قبل ذلك ليست مما يوائم أحوال المسلمين فى ذلك الحين ؛ لأنها خلو من ذلك الجلال الذى لا غنى عنه فى إقامة الفرائض العامة والشعائر الحفلية .

وخطر للنبى فى بداءة الأمر أن يتخذ بوقاً للدعوة إلى الصلاة ، ولكنه لم يشأ أن يحول القبلة عن بيت المقدس ثم يتخذ لدعوة الصلاة أداة كان يستخدمها اليهود فى بعض الصلوات .

ثم خطر له أن يتخذ للدعوة ناقوساً يدق فى ساعات معلومات ، ولكنهم لم يجدوا فى المدينة من صنع الناقوس المطلوب .

وإنه ليوشك أن يتخذ للدعوة ناقوراً من الخشب إذ سنحت فكرة الأذان لبعض الصالحين فى رؤيا المنام .

فقد رأى ذلك الرجل الصالح فيما يرى النائم أنه لقى على مقربة من داره — وهو يسرى فى ضوء القمراء — رجلا طوالا فى ثياب خضر بيده ناقوس جميل ، وبينا له أنه قارب الرجل الطوال يسأله أن يبيعه الناقوس . فتبسم الرجل الطوال وراح يسأله : ولأى شىء تريده ؟ فقال له : إنما أشتريه للنبى عليه السلام ليدعو به المسلمين إلى الصلاة .

قال الرجل الطوال ، وكأنه يزداد فى مقاله طولا : كلا . بل أخبرك بما هو أصلح وأجدى . فخير من ذلك أن ينادى مناد بالدعاء إلى الصلاة من سقف المسجد كما أصنع . وانطلق فى ندائه بصوت رنان عجيب

سماوى الجلال يبعث الوحى الأقدس فى فؤاد سامعه ، وهو يردد ذلك الأذان كما يردد اليوم من شاطئ إفريقية الغربى إلى تخوم هندستان .

الله أكبر . .

الله أكبر . .

أشهد أن لا إله إلا الله . .

أشهد أن محمداً رسول الله .

حى على الصلاة . .

حى على الفلاح . .

لا إله إلا الله .

فهب من رقاده والنغم العجيب يتردد فى أذنيه ، وبادر إلى النبى فقص عليه رؤياه ، فسمعها منه النبى كما يسمع الرؤيا الصادقة التى تأتى بالهداية من الله ، وتذكر تلك الهبة الصوتية النادرة التى خص بها مولاه الوفى بلال ، فأمره أن ينادى إلى الصلاة بتلك الكلمات التى سمعها المسلم الصالح فى منامه ، وكان الليل فى هزيعه الأخير فوعى المؤذن الأول واجب صناعته الجديدة قبل مطلع الفجر ، وما هو إلا أن طلعت بشائر النور الأولى حتى نهض أهل المدينة من نومهم على صوت الحبشى الساحر يردد الأذان من مشرف عال بجوار المسجد . فكان ذلك فاتحة تاريخ المنارة الجميلة التى تتسم بها قبل غيرها ملامح العمارة فى المدن الإسلامية ؛ وكان مصعد بلال فى تلك الليلة إلى الشرفة المضاءة بنور الكواكب على سقوف المدينة هو أول خطوة على سلم المنارة الباقية قبل ألف ومائتى عام .

• • •

فى خلال تلك القرون جميعاً لم يعرف الإسلام يوماً واحداً لم ترتفع فيه صيحة الأذان إلى الله .

ولاتزال نغمات الأذان تعلّم طريق الساعات لسكان مدائن شتى لاعداد لها : وفى المأثورات أنها ستكون علامةً للساعة التى تقوم فيها القيامة ويظهر فيها المهدى المنتظر — مسيح الديانة الإسلامية — فيملى الأذان بصوت جهورى يدوّى فى أنحاء العالم بأسره ؟

وما برحت دعوات الصلاة تستجاب فى العالم الإسلامى بدقة يدهش لها السيّاح ويعجبون .

وقد اشتهرت هذه الدقة عن المسلمين فى استجابة داعى الصلاة حتى استخدمت أحيانا فى الإضرار بهم والإغارة عليهم . فاتفق فى نيسابور — تلك المدينة المحبة إلى عطار الروح الشاعر المعروف باسم العطار — أن الأذان أعلن لأول مرة غدراً وختلا للإيقاع بمن يستجيبون إليه . إذ حدث فى السنة الثامنة من القرن السابع أن أغارت على المدينة جموع جنكيزخان ، وكان من عادة هذه الجموع التى درجت على الاستئصال والتخريب عادة فريدة بين الأمم فى قسوتها وغدرها ؛ وهى أن يعودوا إلى المدينة فجأة بعد تخريبها ليعملوا السيف فيمن رجع إليها من أهلها مطمئناً إلى جلاء العدو عنها أو فيمن يقبلون على الأنقاض المحترقة ليستخرجوا نفائس الأعلاق منها . فلما عادوا إلى نيسابور على هذا النحو أمر الزعيم المغولى بإقامة الأذان فأقبل إليه بهذه الحيلة كثيرون ممن كانوا يختبئون فى مخابئ والزوايا المهجورة ؛ وصدق المؤرخ الفارسى حين قال فى وصف هذه الجموع : « إنهم يقصدون إلى إبادة نوع الإنسان وفناء العالم ولا يقصدون إلى السيادة أو المنفعة » .

• • •

إن جو المأثورات – بما يجمعه من الأشعة والهالات – ليرن فيه صوت بلال أبداً كما رنّ فى الحلم صوت ذلك الغريب فى الأكسية الخضر منبعثاً من عالم فردوسى إلهى مسربل بالضياء .

وليس فى مقدورنا بعد انقضاء تلك المئات من السنين أن نعرف حقيقة صوت المؤذن الإفريقى ولا أن نقوم مزاياه الموسيقية التى لاشك فيها ، ولكننا إذا صح لنا أن نستدل بما قيل فى وصفه على طبقته الموسيقية فالأغلب الأقرب إلى الحقيقة أنه كان من طبقة « الباريتون » المعروفة لدينا بالامتداد والغزارة خلافاً للنغمة العربية التى تعرف بشىء من الحدة والنعومة .

ولا يعوزنا السبب لأن نشك فى أن أحداً من المشهورين من أرباب صناعة الغناء فى الجاهلية كان من ذلك العنصر – العربى – الذى وصفه سائح فرنسى فقال : إنه شعب صحابى ؛ وقد أنبأنا الدكتور بيرون Perron فى كتابه الممتع عن النساء العربيات الذى نشر بالجزائر سنة ١٨٤٨ أن معظمهم كانوا عبيداً وأن جميع العبيد قبل الدعوة المحمدية كانوا على وجه الإجمال من الحبش أو الزنوج ، ولايبعد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتى عاد – ولايزال لأغانيهما بقية مروية – فتاتين حبشيتين .

وتقول الأخبار إنهما كانتا لعبد الله بن جدعان من سلالة عاد ، وإن فترات التاريخ العربى لم تخل من عتقاء أو خلاسيين نبغوا فى الشعر أو فى الفن أو الغناء ، ومن هؤلاء الأغربة السود ذلك الأسود الذى نظم إحدى المعلقات ورويت له أغان وأناشيد بين أحسن القصيد ، ونعنى به عنترة بن شداد .

ومنهم خفاف الشاعر الفارسى ابن عم الخنساء ، والشنفرى الذى لم يكن حظه من الشعر بالقليل ، وقد شهر الحرب وحده على قبيلة كاملة ثأراً لحميه الذى قتلوه لأنه ارتضى لبنته زوجا من غير أكفائها وأقسم لا يهدأ أو يقتل منهم مائة بقتله . فأصاب تسعة وتسعين منهم ثم أصابوه وقطعوا رأسه وجاء رجل منهم فركله بقدمه العارية فجرح فى قدمه وفسد جرحه فمات . فقيل إن الشنفرى بر بقسمه وهو قتيل .

ويروى عن النبى أنه ود لو شهد عنترة بن شداد ، ولعله لم يكن يود ذلك إعجاباً بشعره كما وده لعلمه بجدوى ذلك الفارس الشاعر لدعوته ، إذ يجتمع إليها ويقود لها عتقاء الصحراء جميعاً تحت لواء من يبشر بالمساواة .

وطوت روح الإسلام شيئاً فشيئاً قصيد الصحراء الجميل بألوانه الساخنة التى تشبه ألوانها ، وحرارته التى تشبه حرارة رمالها ووقدته التى تشبه وقدة سمائها ، ولكن الأغربة لم تزل تحى وإن كفت عن نظم المعلقات ؛ ولم يكن بالقليل عدد المغنين السود أو الخلاسيين الذين نبغوا فى القرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الإسلام ، فسعيد بن مسجح الذى صادر الخليفة عبد الملك ماله لأنه فتن أبناء الأشراف بسحر غنائه فأجزلوا له العطايا وصبغوا تراثهم عليه كان عبداً من عبيد مكة ، وأبو محجن نصيب بن الزنجى قد لقى الحظوة من أمراء كثيرين وحكام عظيمين منذ أيام عبد الملك إلى أيام هشام وقد حشا يزيد الثانى فاه دراً فى يوم من الأيام .

وأبو عباد معبد – أمير الغناء فى عصره – أطرب ثلاثة من الخلفاء ، وعتق على يزيد من الطرب وهو يستمع لغنائه ، ومنحه خلعه التى على عنقه

ألف دينار جائزة واحدة . ومتى فى جاريته الوليد الثانى هو وأحوه فى ثياب السواد حدادا عليه ، وكان قد مات فى قصره .

ويبدو أن سلامة الزرقاء – التى بلغ ثمن القبلة منها أربعين ألف درهم – كانت من سلالة السود ، وكانت سلامة القس وحبابة صاحبتا من جوارى المدينة المولدات ، وتروى قصة من أشجى القصص العربية عن غرام يزيد بحبابة هذه وموته حزناً عليها .

والأدلة كثيرة على أن أصوات الجوارى السود وأساليبهن فى الغناء كان لها سحر ملحوظ فى نفوس ساداتهن المسلمين ، كما يؤخذ من مطالعة أدباء العرب والفرس فى بعض الأحيان . وقد قيل إن إسماعيل بن جامع أعظم المغنين فى عصر الإسلام الذهبى أعطى جارية سوداء أربعة دراهم لينقل عنها نغماً غريباً سمعها تترنم به وهى تحمل الجرة على رأسها . ثم وضع فى ذلك النغم دوراً سمعه الخليفة هارون الرشيد فقال إنه لم يسمع مثله قط فى جماله وابتكاره وأجازه عليه بأربعة آلاف دينار ومنزل نفيس الأثاث والرياش .

ويقص علينا السعدى – الشاعر الفارسى – أنباء أخرى نعلم منها أن أرباب الغناء من السود قد بقيت لهم منزلتهم فى هذا الفن إلى مابعد صدر الإسلام ، ومن تلك الأنباء قصة رواها فى كتابه بستان الورد من أحوال الدراويش وكان لها شاهد عيان .

قال :

« خرجت إلى الحجاز فى رفقة من الشبان الأذكياء ، وكانوا يترنمون فى الطريق بين حين وحين ببعض الأشعار الصوفية ، وكان بيننا رجل من الأتقياء ينكر سلوك الدراويش لأنه يجهل حالهم ولا يعرف

نجواهم ، فلما بلغنا نخل بنى هلال برز لنا من خيام بعض العرب غلام أسود يتغنى بصوت يستنزل الطير من السماء ، ونظرت إلى جمل صاحبنا التقى قد أخذه الصوت الساحر فألقى براكبه إلى الأرض وهام فى الصحراء ، فصحت بالرجل : ياهذا ! إن صوت هذا الفتى قد عمل فى الحيوان الأعجم ولم يعمل فيك ! » .

وذلك أنه كان من عادات العرب القديمة أن يحفزوا الإبل إلى المسير والصبر على السفر بألحان الحداء ، وقد روى جنتيوس Gentius معقباً على هذه الواقعة فى ترجمته لبستان الورد (امستردام ١٦٥٤) قصة أخرى أعجب من الأولى فقال : « إن مؤلفاً من الثقات نزل بضيافة رجل فى الصحراء ضاعت منه جميع إبله ، فجاءه عبد زنجى وسأله أن يتشفع له عند مولاه فى ذنبه ، فلما حضر الطعام أبى المؤلف الضيف أن يمد يده إليه أو يصفح صاحب الدار عن ذنب مولاه . فقال له صاحب الدار . إن هذا العبد خبيث ضيع عليه ماله ورده إلى أسوأ الحال ، وقد منحه الله صوتا جميلا فأقنه حاديا لإبلى فأجهدها بسحر حدائه حتى قطعت فى يوم واحد مسيرة ثلاثة أيام . ولكنها لم تلبث أن نفقت جميعاً ساعة وضعت عنها أحمالها لفرط مانالها من الإعياء ، وقد وجب لك حق الضيف فقبلت شفاعتك وأعفيت هذا العبد الخبيث من الجزاء » .

ومن النوادر التى تروى فى هذا المعنى وتدل على شأن الحداة فى الشرق – نادرة حكاها جلال الدين فى تاريخه حيث قال إن المنصور أجاز سالماً الحادى بنصف درهم لأنه أطربه بحدائه حتى أوشك أن سقط عن جمله . فقال سالم : لقد حدوت لهشام فأجازنى بعشرة آلاف ! » فما لاشك فيه أن المعير فى الجاهلية وفى الصدر الأول من الإسلام

كانوا على الأكثر من العبيد والمولدين . وأن هؤلاء العبيد السود كانوا من ذوى الهبات الصوتية العجيبة وبلغوا الرفعة بمهارتهم فى الصناعات الموسيقية ، فلا داعى للشك فى ملكة الغناء عند بلال الاقى قيام المأثورات عن صوته الحسن على أساس صحيح ويبقى أن ننظر هل هو الذى أبدع لحن الأذان الذى مضى عليه المؤذنون من بعد، أو أنه قد أدى الأذان كما أمر به وأوحى إليه .

وعلينا أن نذكر « أولا » أن العرب الأقدمين مع حساسيتهم الموسيقية لم ترتفع الموسيقى بينهم فوق طبقة التجويد الصوتى إلا فى الفرد النادر ، وغاية ما يلمعوه فى هذا الباب يشبه الصدحات الكورسيكية الحديثة بما فيها من الزركشة والترديد على هوى المغنى أو على هوى السامعين . فتعاد الكلمة الواحدة مرة بعد مرة بتمويه وتجويد ومد وقصر يطول لتكرار فيه حتى ليستغرق إلقاء القطعة الواحدة من النظم بضع ساعات .

ولاتزال هذه النزعة فى الغناء باقية على حالها بين العرب المحدثين ، فقد صدق بيرون Perron حين سأل . أى سائح فى مصر لم يسمع كلمة ياليل تعاد مرة بعد مرة ونصف ساعة أو تزيد ؟

والأغلب أن الأنغام العربية لم تكن لتزيد فى عهد الدعوة المحمدية على ثلاثة أنواع متميزات : وهى ما يسمى بالنغم البسيط ويعنى به فى مقام الوقار ومعارض الطولة أو السهولة كغناء الحرب والحداء .

وما يسمى بالنغم المركب وهو يتألف من حركات عدة وترجيعات صوتية كثيرة ، وما يسمى بالخفيف وهو يستخف السامع إلى الطرب ويهزه ويحرك أشجانه ويخرجه عن الوقار .

ولما كان بلال عبداً وكان ولا ريب فى بعض أوقاته يسوق الإبل فقد

كان على الأرجح يتغنى بالحداء ويعالج النغم البسيط ، ولكنه – بسليقته الإفريقية التى طبع عليها أبناء جلدته – ربما وجد من وقته متسعاً لترديد الأصوات المركبة واستطاع من ثم أن يلقى الأذان فى ألحانه المعروفة .

فلا يخفى أن النغم الذى يسمع فى المنام قلما يثبت فى الذاكرة . وأن النغم الذى سمعه المسلم الصالح من الطيف العربى صاحب الثياب الخضر يصعب أن يعلق بذاكرته ويجرى على لسانه وهو يقص رؤيته على النبى (صلوات الله عليه) .

فلا يبعد إذن أن يكون بلال قد سمع الأذان وصاغ منه اللحن الذى أوحته إليه سليقته الإفريقية الآمدة فأقره النبى عليه كما أقره على ما أضافه بعد ذلك إلى أذان الصبح حيث زاد عليه « الصلاة خير من النوم » .

ولاجرم يقره محمد على أسلوب ترتيله وهو الذى كان يقربه إليه ويسأله الرأى فى مهمات الأمور . وقد كان يؤثره على غيره من المؤذنين . فلم يكن يؤذن لأحد الرجلين اللذين ندبا للأذان بعده أن يدعو إلى الصلاة وبلال قادر على الدعاء إليها .

* * *

ولزم بلال النبى عن كثب طوال حياته فكان يوقظ النبى بعد الأذان أحياناً بآية من الآيات أو بكلمة من جوامع الحكمة والتقوى فإذا اجتمع المصلون بالمسجد اتجهت الأنظار نحو الإفريقى الواقف بالصف الأول ليتلوه فى حركات الصلاة ، فإن من واجب المؤذن بعد إعلان الأذان أن يصحب الإمام بالتكبير والدعاء كما يصنع الشماس مع الأسقف فى الصلاة المسيحية .

ولما تعاظمت قوة الإسلام تعاظمت معه مكانة بلال وعهدت إليه

أسود أسحم وأسمر من الأبناء [illegible] على الله الذى يصل إلى يديه ، وتلقى من النبى مفاتيح الكعبة يوم دخل مكة فى موكبه الظافر وكان هو الذى أقام الأذان على أعلى مكان فى تلك البنية التى اشتهرت الآن فى أنحاء الكرة الأرضية . وكان هو الداعى إلى الصلاة يوم حضر إلى المدينة ملوك حضرموت للدخول فى الإسلام ، وكان هو الذى يدعو إلى الصلاة حين يحتشد فرسان الإسلام بالصحراء لقتال عابدى الأوثان .

وتروى عنه أخبار شتى بعد وقعة بدر وفتح خيبر تشف عن بعض شديد لأعداء ربه والحسن إليه لاحاجة بنا فى هذا المقام إلى تفصيلها ، وأجمل من هذا أن نذكر للأسود الأمين غيرته على شخص النبى يوم ذهب معه فى حجة الوداع فظل يحرص على راحته طوال الطريق ويمشى إلى جانبه مظللا إياه بستار فى يده يحميه وهج الظهيرة ، ولعله فى تلك الرحلة قد عبر فى الوادى المقدس تلك الأماكن التى كان سادات قريش يعذبونه فيها فى حر شمسها .

ثم توفى محمد ، عليه السلام ، فسكت الصوت العجيب ودعى مؤذنون آخرون لدعاء المسلمين إلى الصلاة . لأن بلالا عاهد نفسه ألا يؤذن لإمام بعد نبيه ووليه .

ولا نعلم كم من الوقت قضاه بلال فى صحبة أبى بكر بالمدينة ، ولكنه ولاريب كان فى موضع الرعاية والكرامة بين المسلمين ، وكان له من جلال القدر فى أنظارهم ماخوله أن يخطب امرأة عربية حرة لأخيه الأسود وهى رعاية عظمى بين قوم لايزالون يفخرون بصحة النسب ويسمون أنفسهم بالأحرار أى الخلص من النسب الخليط

ويؤخذ من بعض الأنباء أن بلالا قد تولى بعض مهام الدولة بعد الخليفة الأول . فلما أراد الخليفة العادل الصارم فى عدله — عمر بن الخطاب — أن يحاسب « سيف الله » خالد بن الوليد على بعض أعماله كان بلال هو الذى نزع عمامة خالد وأوثق يديه أمام جماعة المسلمين بالمسجد وهو يردد مشيئة أمير المؤمنين .

ولكننا لانسمع بعد هذه القصة عن بلال إلا القليل ، حتى وصل عمر إلى الشام فعلم أنه كان يصحب الجيش وأنه كان قد منح بجوار دمشق قطعة من الأرض واعتزل الحياة العامة كل الاعتزال .

وكان معظم الصحابة قد فارقوا الدنيا ، ولحق أبو بكر وخالد بالنبى فى رضوان ربه كما لحق به آخرون ممن جاهدوا معه فى معارك الإسلام الأولى . ولم يكن الجيل الجديد على نمط الجيل الذى تقدمه فى المعيشة ، فزالت أوكادت تزول من حياة العرب تلك البساطة البدوية التى درجت عليها ، وبهرت عيونهم بدع من الترف الآسيوى لم تكن معهودة فيما مضى ، وتدفقت أموال فارس على المدينة كأنها سيل من الذهب حتى دمعت عينا الخليفة عمر وهو ينظر إليها ويخشى منها الفتنة والحسد على رعاياه .

وفى خلال ذلك كانت العقيدة التى تعذب بلال من أجلها ودان بها زمناً وهى لاتتجاوز حى أبى طالب — قد جاوزت البرور والبحار إلى سورية وفلسطين وفارس ، وشهدها قبل أن يسلم روحه إلى ذلك الذى لاينام وهى سلكت سبيلها إلى القارة الأفريقية فتصمها إلى فتوح الإسلام . وبهذا أصبحت دعوته الأولى — دعوة الأذان — مستجابة بين أقوام من المتعبدين من تخوم الهند إلى شواطئ الأطلس ، وقرع فرسان الصحراء

العربية أبواب كابل . . . ولعل ولداً من ذرية بلال قد عاش حتى رأى الدولة تمتد على بقاع الأرض مسيرة مائتى يوم بين المشرق والمغرب . وإن ما بلغته الفتوح الإسلامية — حتى فى السنة الثانية عشرة للهجرة — لخليق أن يستجيش فى صدور الشيخ الهرم حمية الدين التى عمر بها ملايين جانحيه

• • •

سكت صوت بلال عن ترديد الأذان بعد نبيه ووليه ، لأنه رأى فى حسبانه التقى أن الصوت الذى أسمع نبى الله ودعاه إلى بيت الصلاة لاينبغى أن يسمع بعد فراق مولاه . ولنا أن نتخيله فى مأواه بالشام وإنه ليدعى مراراً إلى ترديد ذلك الدعاء الذى أعلنه لأول مرة تحت قبة السماء المضاءة بمصابيح الكواكب ، وإنه ليضطر مراراً إلى الإباء والاعتذار لأولئك الذين كانوا يجلونه إجلال القديسين ويودهم لو بذلوا أموالهم كلها ليسمعوه .

إلا أنه لما ذهب عمر إلى دمشق توسل إليه رؤساء القوم أن يسأل بلالا إقامة الأذان تكريماً لحضر أمير المؤمنين فرضى بلال وكان أذانه الأخير .

• • •

لقد كانت غيرة فتيان الدين الجديد فى تلك الأيام غيرةً يوشك ألا تعرف الحدود ، ومن المحقق أن النبأ الذى سرى بينهم مبشراً باستماعهم إلى أذان بلال قد أذكى فى نفوس أهل المدينة الوردية الشذى حمية منعرجة لانظن أن العالم المسيحى قد شهد لها مثيلا فى غير أيام الصليبيين .

فلما شاعت البشرى بين أبناء المدينة بسماع صوت المؤذن النبوى لاح للأكثرين ولاشك أن الظفر بسماع هذا الصوت غنيمة مقدسة تكاد أن

تضارع الظفر بسماع النبى عليه السلام . . . وأنها أصغر أحدوثة فى الحياة تروى بعد السنين الطوال للأبناء والحفدة . وقد يكون فى المدينة من تلقى النبأ بشعور لا يتجاوز التطلع والاستشراف ، ولكن الأكثرين الذين تزاحموا فى صمت وخشوع راجى القلوب مرهفى الآذان لسماع « التكبيرة » المعروفة قد خامرهم ولا ريب شعور أعمق وأقوى من أن يلم به النسيان . وتزكى روايات العيان هذا الاعتقاد ، لأننا نعلم من تلك الروايات أنهم بعد لهفة الانتظار فى تلك اللحظة لم يلبثوا أن سمعوا رنة الصوت الجهورى تشق حجاب السكون وتتعاقب من حنجرة الشيخ الأفريقى تلك الكلمات المحبوبة الباقية حتى بكى عمر ومن معه وتحدرت الدموع على وجوه أولئك الأبطال المجاهدين وارتفع زفراتهم بنشيج عال عظيم فى المسجد على دعاء الأذان الأخير .

أى فنان موسيقى أو دارس لتاريخ الموسيقى لا يود لو يسمع كيف كان صدى بلال فى ذلك الأذان ، وأن يسمع الكلمات الخالدات كما كانت تسمع من أول المؤذنين ؟ !

ولاحاجة بنا إلى أن نقول إنها أمنية مستحيلة ، لأن فن النوطة أو تدوين الأنغام لم يكن معروفاً يومئذ بين العرب ، ولم تكن لهم وسيلة لنقل الصوت من جيل إلى جيل غير تعليق الذاكرة، فليس فى وسعنا أن نجزم كل الجزم بما بقى أو بما تبدل من تلحين بلال للأذان. ولكننا نرجع إلى الظن وقد يغنى فى هذا الباب . ولدينا من الأسباب ما يكفى لترجيح بقاء الأصوات نيفاً وألف سنة محفوظة فى الذاكرة بغير تدوين ، ولعلنا نستطيع القول بأن بعضاً من النغمات العبرية بقيت بهذه الوسيلة من أيام سليمان ، وليست غيرة العرب على المأثورات الدينية بأقل من غيرة العبريين ، فلا جرم تسنح

لأنغام الأذان فرصة للبقاء فى الذاكرة كالفرصة التى منحت لأناشيد إسرائيل .

فى الجائز أن الأذان الحديث فيه على الأقل نغمات مشابهة للنغمات التى ابتدأ بها بلال إذ كانت الكلمات نفسها باقية بغير تبديل

ولعل مصر التى فتحت وبلال بقيد الحياة – مصر بلد الخلود الذى لايقبل التبديل – قد حفظت دعوة الصلاة كما كانت ترتل فى العشرة الثانية بعد الهجرة المحمدية . وقد سمعت الأذان من مؤذنين سمعوه من بلال

ويرضينا أن نعتقد أن بلالا نفسه قد أدى الأذان على نحو يشبه أداءه المسموع فى مصر الحديثة كما سجله فيلوتو Villoteau وهو أنغام تذكر السامع برسوم العمارة العربية وتنقسم إلى أجزاء وأجزاء مما يقع موقع الغرابة فى تأثيره على مسامع الغربيين .

وقد كان المؤذن الذى سمعه فيلوتو أقرب إلى التمكن من المؤذن الذى سجل لين Lane نغماته فى كتابه عن المصريين المحدثين فإذا بها تنتهى وفى السمع انتظار لبقية تالية . . . ولعلنا نؤثر أن يكون تلحين بلال من قبيل ذاك الأذان لما فيه من غرابة النغم التى يألفها العرب وشبه تلك الخفايا المستغربة فى الأصداء الإفريقية إلا أن النغم الآخر مع هذا يعبر على بساطته عن جمال ووقار ويوحى إلى معنى العبادة الخالدة التى لانهاية لها والتى هى أبداً فى ابتداء بغير ختام . كما يوحى إلى صلاة معلقة تتصل بما بعدها ولو كانت هى آخر صلاة .

تعقيب

من الصفحات التي مرت بنا – مترجمة من الإنجليزية عن الكاتب الألماني لفكاديو هيرن – يتبين للقارئ منزعه الأدبي في الكتابة والتصوير وهو على الأغلب مزج الخيال والمجاز والعطف على الحياة الشرقية التي تمتزج بتواريخ الروحيات والدينيات على الإجمال ، وهو مع تحقيقه في مراجعة المصادر التي اعتمد عليها لم يخل من هفوة هنا أو هناك لايعيبها سوء النية الذي تشف عنه أقوال الكثيرين من المستشرقين ، وإنما يوقعه في الخطأ حب المجاز أو الاسترسال في صقل موضوعه وتجميل صورته ، فلا يستغني هذا المقال الممتع الذي حيي به ذكرى المؤذن الأول عن تعقيب نصحح فيه من مقاله مايحتاج إلى التصحيح أو الاستدراك .

فمن هفواته العرضية إشارته إلى عقب بلال رضي الله عنه وليس له عقب كما ورد في ابن هشام نصاً ، وكما يفهم من السكوت عن ذكر بنين له أو بنات في كل ماقرأناه عنه .

ومن هذه الهفوات العرضية اعتقاده أن أبا رويحة كان أخا لبلال من أبويه أو من أحدهما وهو على أرجح الأقوال أخوه في الإسلام على سنة المؤاخاة التي كان النبي (صلوات الله عليه) يعقدها بين الصحابة من أنصار ومهاجرين .

غير أن هفوته الظاهرة هي مذهبه في تعليل كثرة المغنين والمغنيات بين الموالي في بلاد العرب وقلتهم بين أبناء البلاد الأصلاء فإنه يجنح في كلامه إلى تعليل هذه الكثرة بنقص في الأداة الصوتية ، أو في القدرة الفنية عند العربي الأصيل ، وأن الموالي والجواري من السود والأحباش سلموا من هذا النقص فكثر اشتغالهم بفن الغناء في الحجاز ثم في غيره من الأقطار الإسلامية .

وظاهر أن هذا التعليل بعيد من الصواب ، لأننا نسمع العرب اليوم في حديثهم ونداءاتهم كما سمعوا قبل الإسلام فلا نجدهم قاصرين في الجملة عن أداء صوت من الأصوات أو الارتفاع في جهارة الصوت وقوته إلى طبقة من الطبقات ، ولكنهم كانوا يعرضون عن صناعة الغناء لاعتقادهم في بداوتهم أنها صناعة أنثوية لاتليق بالفارس المقدم ولا بالرجل الكريم ، وأن المنادمة والتسلية بجمال المسمع أو جمال المنظر أدنى إلى عمل النساء منها إلى عمل الرجال ، وكانوا أهل حرب أو تجارة فلا يحمدون من الرجل الكريم أن يشتغل بعمل غير القتال أو تسيير القوافل بين رحلتي الصيف والشتاء ، وكثيراً ما كان تسيير القوافل بالتجارة ضرباً آخر من ضروب القتال .

وتوارثوا هذا الاعتقاد إلى مابعد أيام الدولة الإسلامية ، فكان الغناء مقصوراً على الموالي والجواري أو على المخنثين الذين يتشبهون بالنساء في المظهر والكساء ، ولهذا كانوا يرسلون الشعر ويطلون الوجوه وعنهم أخذ الأوربيون هذه العادة وعمموها في أزياء أصحاب الفنون من موسيقيين ومصورين وممثلين ، وظل إرسال الشعر وطلاء الوجه شائعاً بينهم إلى زمن قريب ، بعد أن نقلوه من الأندلس ونقله الأندلسيون عن أهل الصنعة في مدن الحجاز .

بكثرة المغنين بين الموالي والجواري إنما ترجع إلى هذه العلة لا إلى عجز الأداة الصوتية في العرب الأصلاء ، وقد كانت لهم صناعة غناء لاينكرونها وهي الحداء والنصيب وما إليه ، فكانوا يبلغون بها أقصى مدى الصوت الإنساني في العلو والقوة والامتداد ، وقد سمعناهم في البادية مع

القمراء فكانت أصواتهم الجهيرة تملأ الصحراء . وهي في الغناء أعمر مكان على امتلاء .

وصوت بلال رضي الله عنه لم يطلب ... سدا للأذان لأنه عرف قبل ذلك في أغاني الغناء ، ولعله رعى الإبل وحداها في بوادي الحجاز أو في الطريق بين الحجاز واليمن وبين الحجاز والشام ، ولم يذكر قط أنه اشتغل بغير هذا الضرب من الغناء قبل الإسلام أو بعد الإسلام ، وإنما عرفت جهارة صوته في الحرب والسلم بحداء الطريق فاختاره النبي عليه السلام للأذان ، وكانت تقواه وغيرته على الصلاة والعبادة ولزوم المسجد من أسباب ذلك الاختيار

فهرس

	صفحة
كلمة تصدير	٥
مسألة العنصر	٧
العرب والأجناس	٤٧
الرق في الإسلام	٥٣
نشأة بلال	٦٧
إسلام بلال	٧٩
صفات بلال	٩٣
الأذان	١٠٣
المؤذن الأول	١١٣
تعقيب	١٣٧